المرأة العربية ودورها فى الإبداع الشعرى
منذ العصر الجاهلى حتى عصور الانحطاط

د. سهام الفريح •

مقدمة

يسعى هذا البحث إلى إبراز دور المرأة العربية فى الإبداع الشعرى، وليس معنى هذا أن أثير مجابهة بينها وبين الرجل، وإنما هدفى من إثارة هذا الموضوع الكشف عن الحقائق التى تبرئ حضارتنا العربية والإسلامية؛ التى يدعى بعضهم أنها غمطت حق المرأة وظلمتها.

وبعد مطالعاتى الأولية تبين لى أن العرب قدروا المرأة حق قدرها، ومنحوها حرية ومكانة فاقتا ما كان فى الأمم المجاورة لهم؛ ففى عصر ما قبل الإسلام مثلاً أسموا أكثر آلهتهم أسماء أنثوية، وأسبغوا عليها صفات قلّما يتجلى بها الآلهة الذكور، ولعل العرب من أقدم التى الأمم حكمت فيها ملكات مثل بلقيس، والملكة زنوبيا. كذلك رفع العرب من شأن الكاهنات؛ مثل زرقاء اليمامة، وفاطمة بنت مر. ونحن نعلم ما كان للكاهنة من مكانة فى قومها، وكيف كانت تأمر فتطاع. والحديث يطول فى هذا الجانب، ومكانه فى غير هذه الدراسة.

حتى إذا جاء الإسلام، رأيناه يمنح المرأة من الحرية ما لم تحلم بجزء منه فى الأمم الأخرى؛ فكان منهن الصحابيات، والمهاجرات إلى الحبشة، واللائى جاهرن بالإسلام؛ وشاركن فى غزوات النبى(ﷺ) حرباً وإسعافاً

• أستاذ مساعد بكلية الآداب ــ جامعة الكويت.

ونجدة، ناهيك عن عدد غفير من الشاعرات اللائى كان لهن دور فعال فـــى الدعوة إلى الإسلام مثل: عاتكة بنت زيد، وميمونة بنت عبد الله، وهند بنـــت أثاثة، وصفية بنت عبد المطلب، ورقية أختها.

ولاحظت أن المرأة قامت بهذا الدور الإيجابى لأنها أدركت بغريزتها وعقلها أن الإسلام دفع عنها الظلم الذى كان يحيق بها، وأن الإســـلام أقـرّ حقوقها، وثبت عزائمها، ومنحها حق الحرية، وإبداء الرأى، وحق الملكيـــة، واختيار الزوج، وخطبته أحياناً، مثلها مثل الرجال، على نحو لم يعرف مثلـه من قبل فى الحضارات العريقة، كحضارات اليونان، والرومان، والفـــرس، والفراعنة.

نحن نسعى فى هذا البحث للرد على الآراء التى أساءت إلى المـرأة، وذلك عبر رصد دورها ومشاركتها الفعالة فى نظم الشعر عـــبر العصـــور المختلفة، ولمناقشة بعض الدراسات الحديثة التى أشارت إلى أن المـــرأة لـــم تسهم إسهاما فعالاً فى حركة الشعر خاصة، والأدب عامة، وأن من بـــرزْنَ من النساء كان أغلبهن – أو أغلب نتاجهن – فى شعر الرثاء الذى هو أقرب إلى طبيعة المرأة وعواطفها الجياشة.

وبعد استقراء نتاج المرأة فى هذا الفن فى المصادر المتعـددة، ومـا جمعناه أيضاً من أشعارهن، وجدنا أن الكثير منهن قد نظمن فى فنون مختلفة وأغراض أخرى شديدة الجرأة، إضافة إلى ما كان عليه شعر بعضهن مـــن جمال الصياغة، وعمق المعانى، وبكارة الصورة.

وقليلة جداً هى الدراسات التى دارت حول شعر المرأة فى العصـــور المتقدمة، وبعضها يتمثل فى صفحات محدودة ضمن دراسة شاملة لظـــاهرة

معينة، أو عصر معين من عصور الأدب، ومعظم الدراسات الحديثة عن أدب المرأة يدور حول نشاطها فى العصر العباسى؛ مثل (المرأة فى أدب العصر العباسى) لواجدة الأطرقجى، ودراسة (الجوارى والشعر فى العصر العباسى) لسهام الفريح؛ فالأولى تحدثت عن جوانب مختلفة منها المرأة فى شعر الرجال، والأخرى وقفت عند (الجوارى) فى مقابل الحرائر فى ذلك العصر.

لذا فإن هذه الدراسة تسعى إلى إبراز القيم الجمالية والفنية فى شعر المرأة عبر عصور الأدب المختلفة، إضافة إلى الكشف عن دورها فى المجتمع، ونظرة المجتمع إليها، ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث الذى يحاول أن يجيب عن مجموعة من التساؤلات التى لا تزال تطرح نفسها حتى هذه اللحظة.

مكانة المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى القديم

فى أى مجتمع من المجتمعات القديمة هناك الكثير من المعتقدات التى صورتها لنا الأساطير والخرافات من مصادر متنوعة ومتعددة. وطبيعى أن يكون لهذه المعتقدات أثرها على فئات هذه المجتمعات، ولعل تأثيرها البالغ يقع دائماً على المرأة، وإن كانت الأخبار والروايات تشير إلى التعسف ضد الأنثى إن كانت بنتاً أو زوجة أو غيرها، والتاريخ حافل بما يروى عن وأد البنات، ودفن الزوجات وهن على قيد الحياة مع جثث أزواجهن، فطبيعى أن يؤدى هذا إلى تخلف المرأة وقصور مشاركتها فى المجتمع، ومع هذا التعسف والظلم برزت نساء كثيرات حفظت كتب التاريخ والأدب أسماءهن وأخبارهن.

وربما كانت المرأة فى المجتمعات العربية القديم أحسن حالاً مما هى عليه فى مجتمعات الفرس أو الرومان أو اليونان (المرأة فى الشعر الجاهلى، ص ص ١٨-٦٥، ص ص ٥٤٩ - ٥٥٤).

وهناك أسماء نسائية برزت فى تلك العصور المتقدمة، وكان لها دور ملحوظ فى مجال السياسة وتدبير الحكم فى الحياة العامة، وخاصة عندما توافر لهؤلاء النساء الظروف الملائمة لإبراز مواهبهن، وقدراتهن الفطرية، ومن الأمثلة فى التاريخ العربى زنوبيا (ملكة تدمر)، التى حكمت مملكة مترامية الأطراف امتدت حتى آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين، ومصر، وكانت هذه المرأة ذات رأى وحكمة، وذات بأس وشدة وبعد نظر، إضافة إلى ما اتصفت به من جمال أخّاذ، ويقال إنها حكمت البلاد بعد موت زوجها (أذينة) باسم ابنها (وهب اللات).

بالقيس ملكة سبأ:

وهى من أشهر ملكات التاريخ العربى القديم، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم (سورة النمل، الآيات ٢٣-٤٤) وإن لم يرد اسمها. ولقد وردت الإشارة إليها باسم ملكة سبأ عند الحديث عن نبى الله سليمان بن داود، وفى الآيات القرآنية إشارات واضحة إلى رجاحة عقلها وحسن تدبيرها، وقد اعتمدت المشورة فى قضاء أمور بلادها.

وكانت بلقيس من الشخصيات التى تحدثت عنها كتب التاريخ والأدب والشعر العربى القديم، على نحو بلغ بها حد الأسطورة والخيال. وتشير اللقى الأثرية إلى وجود خمس ملكات حكمن بلاد اليمن، تداخلت أسماؤهن، منهن بلقيس، ومنهن ملكة سبأ التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم.

المرأة وأهلية الامتلاك فى الإسلام:

حرمت المرأة من حقوق كثيرة فيما قبل الإسلام؛ منها حق التملك، وحق الميراث، شأنها فى ذلك شأن النساء فى المجتمعات القديمة، وإن كانت هناك بعض الأخبار التى تشير إلى تصرف المرأة فيما تملكه؛ فإن هذه التصرفات لا تنظمها قواعد وضوابط، وإنما تتأتى لها حرية التصرف فى بعض الأمور، حسب مكانتها فى مجتمعها، وموقعها من أسرتها، وذلك كخبر ابنة حاتم طيئ (سفّانة) التى كانت شديدة السخاء، فكلما أعطاها أبوها من إبله وماله تبرعت بما وهبها للناس، فقال لها حاتم : يابنية، إن كريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه، فإما أعطى أنا وتمسكى أنت، وإما أن أمسك وتعطى؛ فقالت: والله لا أمسك أبداً؛ فقال أبوها: وأنا لا أمسك؛ فقاسمها ماله وتباينا. (الأغانى ١٧/١٨٠؛ أعلام النساء ٢/١٩٦). فهذا الخبر يشير ــ إضافة إلى حرية الامتلاك ــ إلى تقدير الأب (الرجل) ابنته (المرأة) لإيثارها الكرم وإصرارها على تقديم العطاء للآخرين.

ولما جاء الإسلام منح المرأة هذا الحق، وفصل فيه تفصيلاً دقيقاً (سورة النساء)، محققاً مبدأ المساواة بين أفراد المجتمع؛ نساء ورجالاً، وذلك على نحو ينظم الحياة بينهم، وينظم المجتمع عامة؛ فجعل للنساء مثلما للرجال؛ من السعى فى الأرض والعمل والتجارة، فى قوله تعالى "للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن" (سورة النساء، الآية٣٢)، لذا نرى أنه ــ إضافةً إلى حق الميراث ــ أعطاها الإسلام حق التملك، وحق البيع والشراء. وقد قالت إحداهن ــ هى (قيلة أم بنى أغار) ــ "إنى امرأة أشترى وأبيع".

وولّى عمر بن الخطاب ــ ثانى الخلفاء الراشدين ــ (الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس) أمر السوق فى المدينة، وكان يقدمها فى الرأى، ويرعاها ويفضلها، وولّى (سعداء بنت نهيك) أمر سوق مكة.

حق المرأة فى اختيار الزوج:

لم يكن للعرب حد يرجعون إليه فى عدد الزوجات؛ فربما يتزوج أحدهم عشراً، فجاء الإسلام، فأباح التعدد، وحدده بأربع، وطلب من الرجل تحقيق العدل بينهن، وأن لا يجور فى معاملتهن، وذلك فى قوله تعالى "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعدلوا، ولن تعدلوا". (سورة النساء الآية٤).

لقد رغّب الإسلام رغبة قوية فى الزواج، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة، كقوله تعالى "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة" (سورة الروم، الآية ٣٠). وفى سورة البقرة قال تعالى "هُنَّ لباس لكم، وأنتم لباسٌ لهن" (البقرة، الآية٧، وانظر تاريخ التشريع الإسلامى، محمد الخضرى، ص ٧).

وقد بينت الشريعة الإسلامية منزلة كل من الرجل والمرأة، ووضعت أساس المساواة بينهما فى قوله تعالى "ولهن مثل الذى عليهن، وللرجال عليهن درجة" (سورة البقرة، الآية ٢). وهناك من الآيات الكريمة التى تحض على الإحسان فى المعاملة فى مواقع كثيرة فى القرآن الكريم.

على أن المرأة فيما قبل الإسلام كان لديها الحرية فى اختيار زوجها، كما جاء فى خبر فاطمة بنت مر، وكانت من فضليات قومها، وهى كاهنة،

فقد رغبت فى الزواج من عبد الله والد النبى(ﷺ)، على أن تعطيه مائة من الإبل (شاعرات العرب، ص ١٢٣).

وقد نظم الإسلام أيضاً حرية المرأة فى اختيار زوجها، فلا تجبر على رجل لا ترغب فيه، والأخبار فى هذا الجانب كثيرة، تشير إلى حرية المرأة فى اختيار زوجها. ولعل أبرز مثال على هذا (أم سلمة) عندما طلب النبى (ﷺ) الزواج منها بعد وفاة زوجها وكان لها أربعة أطفال، فقد رفضت بقولها : عندى أولاد وأغار كثيراً فكان رد النبى(ﷺ) لإقناعها أنه سيدعو لها الله كى يخلصها من عقدة الغيرة، وبعد زواجه منها أسبغ عليها كل الرعاية، وأولاها الاهتمام بها وأطفالها.

وقد رفضت أم كلثوم بنت أبى بكر (الأخت الصغرى لعائشة) الزواج من عمر بن الخطاب (ﷺ) وهو خليفة وأمير المؤمنين. وقد أشارت عائشة إلى جانب فى شخصية عمر وهو شدته على النساء. (العقد الفريد ٦/٨٩-٩٠). وقبل أم كلثوم كانت هند بنت عتبة طلبت من أبيها أن لا يزوجها من أحد حتى يعرض عليها أمره ويبين لها خصاله. وقيل إنه لما خطبها سهيل بن عمرو، وكذلك أبو سفيان، وعرضت خصالهما عليها، ناقشتهما وفاضلت بينهما ففضلت أبا سفيان (العقد الفريد ٦/٨٧-٨٨).

تعدد زواج المرأة:

لم تقف سماحة المجتمع الإسلامى فى تلك العصور عند حرية اختيار الزوج، وإنما تعدتها إلى أن للمرأة الحرية فى أن يتعدد زواجها بعد وفاة الزواج أو بعد الطلاق بشرط إكمال العدة؛ فقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه "فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن

بالمعروف والله بما تعملون خبير" (سورة البقرة، الآيـــة ٢٣٤)، وقـــد قـــال الجاحظ: "وكانوا لا يرون بأساً بأن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها." (رسالة القيان، ص ٦٢).

ومنهن من اتصفن بالجمال، ورجاحة العقل، وحســـن الأدب، وقـــوة الرأى، فتزوجن من سادات المسلمين وكبارهم. وأولهن خديجة الكبرى: كـــان لها زوجان قبل النبى (ﷺ)، وأنجبت لكل منهما ولداً، وكانت امرأة حازمـــــة شريفة لبيبة، وهى التى طلبت النبى(ﷺ) للزواج؛ وكانت لها ثروة كبيرة آلت إليها من بعد زواجها السابق؛ وقد عملت على تنميتـــــها بالتجـــارة، فكـــانت تستأجر الرجال فى مالها، ووجدت فى شخص محمد قبـــل النبـــوة المزايـــا والصفات التى تمنتها. وقيل إنها كانت فى الأربعين مـــن عمرهـــا؛ وكـــان النبى(ﷺ) فى الخامسة والعشرين من عمره. (سيرة ابن هشـــام، ١/١٧١-١٧٤).

وكذلك ميمونة بنت الحارث، يقال إنها وهبت نفسها للنبى (ﷺ). وقد تكون هى التى عنتها الآية الكريمة "وامرأة مؤمنة إن وهبت نفســـها للنبـــى" (سورة الأحزاب، الآية ٥٠).

ومنهن أيضا (عاتكة بنت زيد بن عمر)، فقد تزوجت عبد الله بن أبى بكر الصديق، وعندما قتل عبد الله مع الرسول(ﷺ)، جزعت عليـــه جزعـــا شديدا وقالت ترثيه:

فآليت لا تنفك نفسى حزينـــة عليك ولا ينفك جلدى أغـــبرا

وبعده خطبها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فلما تزوجها عمر دعا النـــاس

إلى وليمته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له على بن أبى طالب (كرم الله وجهه): يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنيها وأدعو لها بالبركة، فذكر ذلك لعاتكة، فقالت: إن أبا الحسن (تعنى عليًا) فيه مزاح فإذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له فرفع جانب من الخدر، فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مدمج بالخلوق[1]، فقال لها : يا عاتكة ألست القائلة:

فآليتُ لا تنفكُ نفسى حزينةً عليكَ ولا ينفك جلدىَ أغبرا

فهذا الموقف لا ينقل قبول المجتمع تعدد زواج المرأة فحسب، وإنما يعطى ملمحاً من ملامح الأريحية والرحابة فى علاقة النساء والرجال فى جو من الاحتشام والمودة.

وقيل إن عاتكة هذه لما مات عمر مقتولاً جزعت عليه جزعاً شديداً، لكنها تزوجت بعده (الزبير بن العوام)، ثم تزوجها (الحسين بن على بن أبى طالب)، ثم تأيمت[2] بعده، فقال عبد الله بن عمر من أراد الشهادة فليتزوج من عاتكة (أعلام النساء ٣/٢٠١؛ المستطرف من كل فن مستظرف، ص ص ٢٢١ــ٢٢٢، الأبشيهى، المكتبة الكبرى).

ومنهن أيضاً (أسماء بنت عميس)؛ كانت متزوجة من جعفر بن أبى طالب، ثم لما قتل تزوجها أبو بكر، ومن بعد تزوجها على بن أبى طالب.

وكذلك (عائشة بنت طلحة) تزوجها عمر بن عبيد الله، ثم عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، ثم تزوجها مصعب بن الزبير، ثم تزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى، وكان من أشد الناس غيرة عليها. وقد وقفت يوما

---

[1] الخلوق : ضرب من الطيب، وقيل الزعفران.
[2] تأيمت : وهى التى امتنعت عن الزواج بعد وفاة زوج أو طلاق، وفيها الشباب.

لتنفض التراب عن وجهه، فقالت: ما رأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب، فكاد عمر يموت غيظاً (أعلام النساء، ١٣٧/٣؛ الأغانى، ١٦٥/١١-١٨٥)؛ فقد كانت ذات دلال وجمال، ولذا كانت من أكثر النساء مغايظة لأزواجها، ولها أحاديث جريئة عن حياتها مع أزواجها.

و(سكينة بنت الحسين) تزوجت غير زوج، أولهم عبد الله بن الحسن بن على وهو ابن عمها، ومصعب بن الزبير، وعبد الله بن عثمان الحزامى، وزيد بن عمرو بن عثمان، والأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، (الأغانى، ٩٦/١٦-٩٩).

ولكن ما إن تتقدم الحياة بعد الإسلام حتى نجد الأعراف الدخيلة تلقى بظلالها على المجتمع العربى وتكون أكثر تأثيراً على سلوك الفرد والمجتمع، فتضيق عليه فسحة الحرية، وتكون سبباً لإلغاء حقوق أجازتها الشريعة الإسلامية. من ذلك مثلاً كراهة زواج الأرامل، حتى صار العرف يسخطه سخطاً شديداً. وما إن نصل إلى عهد المعتصم فى أوائل القرن الثالث الهجرى، حتى نجد أحدهم يسأل كاتبه عن صديق له تزوجت أمه: أيرسل له بكتاب تهنئة أم بكتاب تعزية، فكان رد كاتبه: هو إلى التعزية أقرب. (الحضارة الإسلامية، آدم متز، ١٨٠/٢).

الحقوق الزوجية للمرأة :

وتأكيداً لما ذكرناه سابقاً فإن تعاليم الدين الإسلامى قد وضعت قواعد وضوابط تنظم حياة الأفراد فى المناحى المختلفة؛ وكان للمرأة القدر الأكبر فى هذا التنظيم؛ فقد أعطيت المرأة الحق فى طلب الطلاق إن لم يتحقق لها

(الاكتفاء النفسى والمادى). وكانت النساء فى عصر ما قبل الإسلام يطلقن الرجال، ويتم طلاقهن بأنهن إن كن فى بيت شعر حولت الواحدة منهن إياه إلى خباء، فإن كان بابه قبل الشرق حولته قبل الغرب، وإن كان بابه قبل اليمين حولته قبل الشمال، فإن رأى الرجل هذا علم أنها قد طلقته، فلم يأتها. وهذه الإشارة وردت فى "الأغانى" عن حاتم طيئ عندما طلقته زوجه ماوية (الأغانى، ٢٩٧/١٧). وطبيعى أن يكون النبى (ﷺ) ــ خلال الدعوة الإسلامية ــ هو القدوة فى هذا الشأن، حين رجع إلى زوجاته طالبا منهن فرادى أن يبدين رأيهن بين البقاء معه أو الانفصال عنه. ويقال إن عائشة سألته شيئاً من متاع الدنيا، أو زيادة فى النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل الرسول النساء شهراً. وعندما علم عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بهذا الأمر أراد توجيههن، فأجابته أم سلمة إحدى زوجات النبى(ﷺ): يا ابن الخطاب، أو بقى لك إلا أن تدخل بين الرسول وبين نسائه، وأن تسأل المرأة إلى زوجها؟ وعندها نزلت آية التخيير " يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً " (سورة الأحزاب، الآية ٢٩). وقد بدأ بعائشة التى انزعجت من هذا الأمر، لاقتناعها الكامل بملازمته، باقى زوجاته، وكان أمر الله تعالى له " لا تحل لك النساء من بعد ولا تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن"، أى أنه قصره عليهن (تفسير الطبرى، ١٥٧/٢١).

ومن المواقف اللطيفة فى هذا المقام ما ورد فى قصة (ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشى)، فقد تزوجت هوذة بن على الحنفى الذى كان يمدحه الأعشى، فسماه فى الشعر (الوهاب)، فمات عنها، وأصابت منه

مالاً كثيراً، فرجعت به إلى بلادها، فخطبها عبد الله بن جدعان إلى أبيها، فزوجه أياها، فبينما هى تطوف بالكعبة - وكان لها جمال وشباب - رآها هشام بن المغيرة فكلمها عند البيت، وقال لها: قد رضيت أن يكون هذا الشباب والجمال عند شيخ كبير، ولو سألتيه الفرقة لتزوجتك، وكان هشام جميلاً مكثراً، فرجعت إلى زوجها جدعان فقالت : إنى امرأة شابة وأنت شيخ كبير، قال : ما بدا لك فى هذا، فقد بلغنى أن هشاماً كلمك وأنت تطوفين بالبيت، وأنا أعطى لله عهداً ألا أفارقك حتى تحلفى ألا تتزوجى هشاما، فيوم تفعلين فعليك أن تطوفى بالبيت عريانة، وأن تنحرى من الإبل مائة ناقة سود الحد من بين أساف ونائلة[1]، وأن تغزلى خيطاً يحد بين أخشبى مكة [2] فأرسلت إلى هشام تعلمه بذلك، فأرسل إليها: أما ما ذكرت من الطواف بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشا أن يخلو لك المسجد فتطوفين بعد الفجر بسدفة[3] ولا يراك أحد، وأما الإبل فلك الله أن أنحرها عنك، وأما أن تغزلى وبراً فهذا يصنعه نفر من قريش فيوفون بنذرهم، فقالت لابن جدعان: نعم على ذلك؛ فطلقها، فتزوجها هشام (أشعار النساء،٩٩-١٠٩؛ الإصابة، ٣٤٣/٤،٣٥٣،٣٥٤؛ الطبقات الكبرى، ١٠٩/٨-١١٠؛ أسد الغابة ٤٩٥/٥-٤٩٦).

فهذا الموقف وغيره من المواقف لا يدل على قبول المجتمع لتعدد زواج المرأة فحسب، وإنما يسمح لها بطلب الانفصال والطلاق إذا لم يتحقق لها التوفيق النفسى والجسدى مع زوجها؛ فما كان المجتمع يستنكر هذه

---

[1] أساف ونائلة : صنمان فى الكعبة.
[2] أخشبا مكة : جبلا مكة.
[3] سدفة : أى ظلمة الليل.

المواقف التى قد تعجز عنها النساء فى بعض المجتمعات الحديثة بسبب حسبانه خروجاً على القيم والأعراف، ولو كان الأمر غير ذلك لما تجرأت المرأة فى طلب هذا الأمر، وكذلك لما تعددت حوله الأخبار والروايات التى لم نذكر منها إلا النزر القليل.

ومن الأخبار التى تؤكد ما ذهبنا إليه خبر النبى (ﷺ) وضباعة؛ فقد كانت من النساء اللاتى أسلمن مع النبى(ﷺ) فلما مات عنها هشام، خطبها النبى لنفسه من ابنها سلمة، وكان رد ابنها أنه سيعرض عليها طلبه هذا، فالأمر بيدها.

وقد تباينت الروايات فيما دار بينهما، لكنها اتفقت على خطبة الرسول(ﷺ) إياها، فلو لم تكن هذه السماحة التى يتحلى بها الدين الإسلامى لما جعل الرجال يراعون هذه الحقوق للمرأة فى اختيار الزوج حتى وإن كان هذا الخاطب هو محمد رسول الله (ﷺ) (طبقات ابن سعد،٨/١٠؛ الاستيعاب، ٣٤٣/٤-٣٤٤؛ الإصابة، ٣٤٤/٤) وكان رسول الله (ﷺ) يغار على بناته غيره شديدة، وقال على المنبر: إن بنى ابن المغيرة استأذنونى فى أن يزوجوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن، فلا آذن، ثم لا آذن، إلى أن يريد على أن يطلق ابنتى ويتزوج ابنتهم؛ فإنها بضعة منى، يريبنى مارابها، ويؤذينى ما آذاها. وكذلك خبر إحداهن من بنى شيبان؛ فقد دخل عليها زوجها يوما وهى تنشد بيت غزل:

أصبحت فى آل الشقيق غريبة ... على الذى لا عيب فيه معيب
وإن زمانا ردنى فى عشرتى ... إلى، وإن لم أرجه لحبيب

فلما سمع قولها هذا ردها إلى قومها (أشعار النساء، ص ١٨٨. المرزبانى).

وإن سكينة بنت الحسين شرطت على زيد بن عمرو بن عثمان عندما تزوجها أنه إن مس امرأة، أو حال بينها وبين شيء من ماله، أو منعها مخرجاً تريده فهى خلية. (الأغانى، ١٠٤/١٦).

وكذلك خبر (عائشة بنت طلحة) عندما قال لها الحسن بن على بن الحسن: أمرك بيدك، فقالت: قد كان عشرين سنة بيدك فأحسنت حفظه، فلن أضيعه إذ صار بيدى ساعة واحدة، وقد صرفته إليك، فأعجبه ذلك منها وأمسكها (العقد الفريد، ١١٩/٦ - ١٢٠).

وكذلك قصة أرينب بنت إسحق؛ فقد كانت موصوفة بالحسن والجمال، وكانت أيضاً ذات أدب ومال، وكانت زوجاً لعبد الله بن سلام والى العراق زمن معاوية، واحتال معاوية لتطليقها من زوجها، وانتهت قصتها بزواجها من الحسن بن على. وما يعنينا فى هذه الحادثة هو سماحة الرجل المسلم فى تلك العهود التالية القريبة من ظهور الإسلام، والتزامه بما جاء فى تعاليمه ينظم حال الأفراد، فعندما جاء الحسن زوجها السابق إلى عبد الله بن سلام يستأذنه فى أن يسترجع ماله الذى استودعه إياها، أذن له فى لقائها، وترك لهما المجلس، وبعد أن وضعت المال بين يديه، شكرها وأثنى عليها، وأعطاها جانباً كبيراً منه، وقال لها: هذا قليل منى، فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به، فدخل الحسن عليهما وقد رق لهما، ثم قال: أشهد الله أنها طالق ثلاثاً. اللهم أنت تعلم أننى لم أستنكحها رغبة فى مالها ولا فى جمالها، ولكنى أردت إحلالها لزوجها، فطلقها، ولم يأخذ شيئاً من مهرها، فلما كملت عدتها تزوجها عبد الله بن سلام ثانية. (ثمرات الأوراق، ص ص٢٢٩ - ٢٣٥).

سفور المرأة:

لم يكن السفور عاما بين نساء العرب قديماً، كما لم يكن الحجاب عاماً، ويدل على ذلك أن السفور كان فى بعض الأحوال مقصوراً على حالات الحزن والرعب. وقد نهى الله تعالى نساء النبى (ﷺ) عن تبرج الجاهلية الأولى: "يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ...". (سورة الأحزاب، الآية ٣٣).

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر خاص بنساء النبى(ﷺ)، فظللن على سفورهن، كسكينة بنت الحسين التى ورد خبرها فى كتب الأدب: "كانت سكينة عفيفة مسلمة برزة الوجه من النساء، تجالس الأجلاء من قريش ويجتمع إليها الشعراء، وكانت طريفة مزاحة، وكانت من أحسن الناس شعراً، وكانت تصف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى عرف بذلك."(الأغانى،٩٦/١٦) وكانت تسمى (الجمة السكينية). وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد، فعاتبها مصعب فى ذلك فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم، فما كنت لأستره، فوالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد، وطالت مرادة مصعب لها فى ذلك (الأغانى جـ١١ /١٦٥ - ١٨٥؛ أعلام النساء ١٣٧/٣)، وقد أشاد الرجال بجمالها فى حضرتها (العقد الفريد جـ١٠٩/٦).

وقد قال الجاحظ "إن الحجاب لم يكن فى الجاهلية، وإن شريفات النساء خالطن الرجال فى الجاهلية والإسلام" (رسالة القيان ص٥٦).

الأعمال والحرف الخاصة بالمرأة:

اشتركت المرأة فى الإسلام بأعمال كثيرة، بعضها قد يعتقد أنه من

اختصاص الرجال؛ فقد عملت المرأة المسلمة بالتجارة وشاركت الرجل ونافسته فى هذا المجال، وعلى رأسهن السيدة خديجة أم المؤمنين[1]. وبعضهن كن أصحاب صنعة يبعن من نتاجهن، وينفقن على أسرهن (أزواجهن وأولادهن). وقد جاءت امرأة إلى الرسول (ﷺ) تسأله إن كان إنفاقها على زوجها من كسبها يعد من باب الصدقة، وتنال عليه الثواب، فأقرها الرسول على ذلك.

وقد قام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بتولية امرأة اسمها (الشفاء) على سوق المدينة وهو منصب قضائى، وكان يقدمها فى الرأى، وكذلك ولّى (سمراء بنت نهيك الأسدية) منصباً مماثلاً على سوق مكة؛ وكانت سمراء تمر فى الأسواق لمراقبة الباعة ومنع الغش والتلاعب. ومن الفقهاء من جوّز للمرأة أن تتولى القضاء، فتقضى فيما تصح شهادتها فيه، وهو أبو حنيفة، وجوّز ابن جرير الطبرى قضاءها فى جميع الأحكام (الأحكام السلطانية، الماوردى، ص ص١٠٧ - ١٠٨).

أما أبرز الحرف التى هى من أعمال المرأة، والتى قامت بها المرأة منذ عصور متقدمة، فهو الغزل، إذ كان ملهاة لها فى ساعة فراغها.

وقالت امرأة من قيس بنى ثعلبة، كانت تغزل فتأكل من ثمن غزلها فمدحت مغزلها:

رأيتك بعد الله تجبر فاقتى ... إذا ضنَّ عنى الأقربون تعودُ
دراهم بيض ما تزال تفيدنى ... وثوب إذا ما شئتُ منك جديدُ

(أعلام النساء، المرزبانى، ص ص ١٧٥ - ١٧٦).

---

[1] ورد خبرها هنا من قبل.

وكان رد الخليفة المنصور على أحدهم حينما جاء يشكو كثرة عياله من البنات: "أنت أيسر العرب؛ أربعة مغازل يدرن بيتك" (تاريخ الطبرى، ٧٥/٨).

وقد كانت الخيزران أم الهادى ذات سطوة، كما كان لها دور فى الأمور السياسية، حتى ضجر ابنها من ذلك فقال لها: "لئن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه. أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك" (تاريخ الخلفاء، ١٨٦؛ الوصايا فى الأدب العربى القديم، سهام الفريح). وكان من نصائح الإمام الغزالى للمرأة - حينما عدد الآداب اللائقة بها - ملازمة المغزل. (إحياء العلوم، ٦١/٢).

المرأة ومكانتها الاجتماعية فى المجتمع العربى الإسلامى:

وقد كان للمرأة مكانة فى عصر ما قبل الإسلام، حيث شاركت فى عقد الأحلاف مع الرجل. ومن الأخبار التى تروى فى هذا الشأن مشاركة عاتكة بنت مرة زوج عبد مناف بن قصى، وأم هاشم، فى حلف (الحابيشى) (تاريخ اليعقوبى، ٢٧٩/١)، وكذلك ما قامت به أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب فى حلف (المطيبين). (سيرة ابن هشام، ١٤٣/١).

وكانت المرأة تجير الرجل الغريب إذا لجأ إليها، وعلى القبيلة أن تحترم هذه الإجارة، وأن تحمى هذا الرجل من الأذى والعدوان، فقد أجارت سبيعة بنت عبد شمس بعض نفر من قيس، وكان ذلك قبل الإسلام، وأجارت ريطة بنت جذل الطعان دريد بن الصمة حين أسرته كنانة. (الأمالى، ٢٧١/٢-٢٧٣).

وعندما جاء الإسلام أبقى على هذا المبدأ؛ فقد ذكر عن أم هانئ بنت

عبد المطلب أنها أجارت اثنين من أحمائها يوم فتح مكة (فتح البارى،٣٧/٨).

وأجارت زينب بنت الرسول (ﷺ) زوجها أبا العاصى يوم بدر، فأطلق من أسره بغير فداء، ورد عليه ماله. (الإصابة ٩١/٨).

وبرزت المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى، وأصبح لبعض النساء دور ومكانة فى الحياة الاجتماعية والسياسية، وكن يفحمن الرجال، وذلك لما كان لبعضهن من الثقافة والمعرفة، ومن رجاحة العقل وسداد الفكر.

وقد أعطى الإسلام المرأة الحرية فى إبداء الرأى حول كثير من الأمور؛ ليس فى أمورها الشخصية فحسب، بل فى الأمور العامة كذلك. وقد بقيت هذه الحرية حية خلال الدولة الإسلامية فى مراحلها الأولى، لكنها بدأت تزول تدريجيا بدخول قيم وأعراف غريبة ليست من نسيج المجتمع العربى القديم، وليست أيضا من تعاليم الدين الإسلامى الحقيقية.

وأول من تلقانا هى السيدة خديجة الكبرى زوج رسول الله (ﷺ)؛ فقد ساندت النبى (ﷺ) بنفسها ومالها، وكانت أول من آمن به؛ وقد زاده إيمانها قوة وثباتا فى جهاده للإعلان عن هذا الدين الجديد، وكانت - كما ذكرنا سابقا - تعمل بالتجارة.

وكذلك السيدة عائشة أم المؤمنين (رضى الله عنها)؛ فقد برزت فى رواية الحديث عن النبى (ﷺ)؛ وقد نقل عنها ما يقارب ١٢٠٠ حديث. وقد كانت تفتى بين المسلمين فى بعض أمور الدين، مصداقا لقول النبى (ﷺ): "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"، يعنى عائشة؛ لبياض بشرتها التى تعلوها سمرة خفيفة.

وقد سجل التاريخ الكثير من نشاطها الدينى والسياسى؛ فقد عاشت مع

النبى (ﷺ) ثمانى سنوات وخمسة أشهر، وتوفى عنها النبى وعمرها ١٨ سنة، وعاشت ٦٥ سنة (عائشة أم المؤمنين، زاهية قدورة). ولم يتحرج النبى (ﷺ) من التصريح عن أقرب الناس إلى قلبه عندما سأله أحدهم حيث قال إنها عائشة، وعندما ألح بالسؤال ومن بين الرجال أحب إليه، كانت إجابته أبو بكر (رضي الله عنه) والد عائشة (الإمام الزركشى، ص٥٢؛ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص٥٢).

وكذلك (أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية)، وكانت من ذوات العقل والدين، موصوفة بالشجاعة والقدرة على الخطابة حتى نالت لقب (خطيبة النساء) وقد حضرت للنبى (ﷺ) يوما وهو بين أصحابه، فقالت له: بأبى أنت وأمى يا رسول الله؛ أنا وافدة النساء إليك؛ إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك؛ وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، ومقتضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا فى الجمع والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أفلا نشارككم فى هذا الأجر؟ فالتفت النبى (ﷺ) إلى أصحابه بوجهه ثم قال: هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها فى أمر دينها من هذه ؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا... (أعلام النساء،١/٦٦).

وقد اشتركت إحدى النساء المسلمات فى إحدى معارك النبى (ﷺ) وهى حامل، هى (أم سليم بن ملحان زوج أبى طلحة). (سيرة ابن

هشام،٤/٦٦-٦٧).

وأشرك الإسلام المرأة فى الشورى. وهذا ما ذكره ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) حيث قال: "ثم نهض عبد الرحمن بن عوف (ﷺ) يستشير الناس فيهما؛ عثمان وعلى (رضى الله عنهما)، ويجمع رأى المسلمين برأى رءوس الناس وأقيالهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرادى ومجتمعين، سرا وجهرا، حتى خلص إلى النساء المخدرات فى حجابهن (البداية والنهاية لابن كثير).

ومن المواقف البارزة فى هذا الجانب، التى تمثل قبول المجتمع دخول النساء محافل الرجال فى بعض المناسبات، وحسبان ذلك أمرا واقعا لا ريب فيه، وفود النساء على الخلفاء ومحادثتهم بشديد القول، كوفود بعضهن على معاوية بن أبى سفيان عند بداية توليه الخلافة، ومجادلتهن له بصريح القول، لا تثنى بعضهن عن قولة الحق لومة لائم. ولعل أبرزهن " أروى بنت الحارث بن عبد المطلب "، حيث كانت أغلظ الوافدات على معاوية قولا، وكانت حينها كبيرة طاعنة فى السن، فبعد أن رحب بها وأحسن استقبالها قالت له: "لقد كفرت النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير دين كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة فى الإسلام..." إلى آخر قولها، وهو على هذا النسق من الغلظة، فكان رد معاوية عليها: عفا الله عما سلف يا خالة! هاتى حاجتك! فقالت: مالى إليك حاجة، وخرجت عنه. (العقد الفريد،٢/١١٩-١٢١؛ ثمرات الأوراق،١٥٢-١٥٣).

ومن الشخصيات البارزة فى العصر الأموى سكينة بنت الحسين. وكما ذكرنا سابقا كانت سكينة تجالس الأجلاء من الرجال، وكانت قادرة على مجادلتهم

وإحراجهم بقوة الحجة وبيان العبارة. وهناك كثير من الأخبار والروايات عما كان يجرى من مطارحات بين الشعراء فى مجلسها وعن مشاركتها فى نقد أشعارهم بحس نقدى رفيع. ومن أكثر الشعراء حضورا مجلسها جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب؛ وهم من أشهر شعراء العصر. يروى أنهم جاءوا يوما فى ضيافتها، فأذنت لهم باللقاء، فدخلوا مجلسها، وجلست هى حيث تراهم ولا يرونها، وحيث تسمع كلامهم، وأخذت تنقد شعر كل واحد منهم. وكانت جوائزهم منها على قدر إجادتهم للشعر، فكان لكل من جميل ونصيب أربعة آلاف دينار؛ أما جرير والفرزدق فكان لكل منهما ألف دينار، وكان تقديرها لأشعارهم صادرا عن نظرة ثاقبة فى الشعر وفى فنونه، تجعلها قادرة على التمييز بين جيده ورديئه حتى عند مشاهير الشعراء فى تلك الحقبة.

وليس هذا فحسب، وإنما أشارت المصادر إلى دورها فى مجال الغناء، حيث تجمع المغنين فى دارها، ليتطارحوا الغناء بألوانه المعروفة فى ذلك العصر (الأغانى١٧/٣-٨).

ومن الشخصيات البارزة فى المجتمع العباسى زبيدة زوجة الرشيد. وهى زبيدة بنت جعفر بن المنصور وتكنى (بأم جعفر) واسمها (أمة العزيز) وتكنى أيضا (أم الواحد) وزبيدة لقب لها، وقد كانت ذات حكمة وروية مكنتها من معالجة كثير من الأمور فى أحرج المواقف، وقد استطاعت - بما تملكه من رزانة عقل وهدوء خاطر - إقناع الرشيد بأن يبايع ابنها الأمين بولاية العهد، وله من العمر خمس سنين(تاريخ الخلفاء، ص٢٩٠).

وقد اعترضت على الرشيد فى توليته الأمين العراق، فقالت: "ما

أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق، وأعريته من العدد والقواد وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه. فقال: وما أنت وتميز الأعمال وأخبار الرجال. إنى وليت ابنك السلم، وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم". وكان نفوذها كبيرا فى الدولة العباسية خلال حكم زوجها الرشيد؛ فحين حجت بيت الله الحرام فى سنة ١٨٦هـ ، شاهدت بعينها ما يعانيه أهل مكة من المشاق فى سبيل الحصول على ماء الشرب، فطلبت إلى القائم على أموالها أن يحضر لها أمهر المهندسين، وقالت له: "اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا ". فوفد على مكة أمهر المهندسين والعمال، ووصلوا بين منابع المياه فى الجبال، واعتمدوا على عين حنين، فأرسلوا منها الماء بين الصخور، وبذلك وصل الماء إلى مكة، ولازال هذا الماء جاريا لسنين طويلة. (تاريخ الإسلام السياسى، حسن إبراهيم حسن،٢/٤٣١).

ولقد سجلت كتب الأدب والتاريخ بعضا من وصاياها وأحاديثها التى قدمتها خلال الخلاف الدائر بين ابنها والأمين وأخيه المأمون، وهى فى مجملها تمثل ملمحا واضحا لما تتصف به هذه المرأة العربية من عقل وحكمة، وقد أوصت على بن عيسى بن ماهان – حينما اتجه لحرب المأمون – فقالت: "يا على؛ إن أمير المؤمنين، وإن كان ولدى إليه شفقتى وعليه تكامل حذرى؛ فإنى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاره على ما فى يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته، ولا تجبه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهقه بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية، ولا خادما، ولا تعنف عليه فى السير، ولا تساوه فى المسير، ولا تركب قبله، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك

فاحتمل منه، وإن سفه عليك لا تراده. ثم دفعت إليه قيدا من فضة، وقالت: إن صار فى يدك فقيده بهذا القيد؛ فقال: سأقبل أمرك، وأعمل بطاعتكم. (تاريخ الطبرى، ٨/٤٠٥-٤٠٦؛ جمهرة خطب العرب، ٣/١٠٤).

فهذه الوصية تدل على أن هذه المرأة اتصفت بحصافة العقل حتى وهى فى أحلك المواقف، وبعد مقتل ابنها، وهى تعلم أن هذه الفتنة هى بين أخ وأخيه، وهى لا تريد لنار هذه المعركة أن تحرق أيا منهما، أو أن تكون السبب فى دمار هذه المملكة التى بناها السلف من العباسين حتى وصلت إلى ما هى عليه من الرقى والتطور فى تلك الحقبة. (الوصايا فى الأدب العربى القديم، سهام الفريح، ص١٨٠).

وكذلك تميزت أقوالها بقوة البيان وصفاء العبارة، بجانب الحفاظ على الحكمة والوقار، فلم ينحرف سلوكها أبدا عن نهجها الذى درجت عليه. دخل عليها أحد خدمها بعد مقتل ابنها الأمين قائلا: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت : ويلك ما أصنع؟ فقال : تخرجين تطلبين بثأره، فقالت : اخسأ، ما للنساء والثأر ومنازلة الأبطال؟ ثم أمرت بثيابها فلبست السواد، ثم كتبت إلى المأمون:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها ... إليك ابن عمى من جفونى ومحجرى
أصبت بأدنى الناس منى قرابة ... ومن زال عن كبدى فقل تصبرى

(ورد فى ديوان أبى العتاهية أن زبيدة طلبت منه نظم هذه الأبيات :١٥٨) وقيل إن المأمون لما قرأ هذه الأبيات بكى، ثم قال : اللهم إنى أقول كما قال

أمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – لما بلغه قتل عثمان "والله ما أمرت ولا رضيت. اللهم جلل قلب طاهر حزنا" (مروج الذهب،٣/٣٢٧)

وقد كان المأمون يوجه إلى أم جعفر(زبيدة) فى كل سنة بمائة ألف دينار جدد وألف ألف درهم.

ولما قدم المأمون بغداد طلبت (زبيدة) من أبى العتاهية أن ينظم لها الأبيات الآتية، بعد أن أحست بجفاء من المأمون:

ألا إن ريب الدهر يدنى ويبعد ... ويونس بالألاف طورا ويفقد
أصابت لريب الدهر منى يدى يدى ... فسلمت للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إذ ذهبت يد ... فقد بقيت والله يا دهر لى يد
إذا بقى المأمون لى فالرشيد لى ... ولى جعفر لم يفقدا ومحمد

(العقد الفريد، ٣/٢٦١-٢٦٢؛ الأغانى، ٢٠/٢٦٤-٢٦٦).

وكان لهذه الأبيات الأثر البالغ فى نفس المأمون، فعاد إلى زبيدة أكثر مما كان لها عليه. وهذه الأشعار إن لم تكن من نظمها فهى نابعة من تفكير امرأة بلغت درجة عالية من الكياسة والدبلوماسية فى تدبير الأمور ومعالجتها، قد يندر وجودها عند بعض الرجال؛ فهى تتعامل مع أحداث جسام فقدت خلالها فلذة كبدها، وفقدت السطوة والقوة والنفوذ. وهى فى ظل هذا لم تصرفها عاطفة الأمومة الجياشة عن رباطة الجأش والسيطرة على النفس؛ فلم تنس مكانتها الكبيرة، ودورها الفعال فى ترسيخ أركان الخلافة العباسية بوصفها زوجة الرشيد أشهر خلفاء بنى العباس وأبرزهم مكانة ودورا فى تاريخ هذه الخلافة.

وقد تجلت صفات هذه المرأة أيضا فى رسائلها إلى المـــأمون (ابـــن زوجها) عندما تولى الحكم بعد مقتل ابنها (الأمين) وقد قالت فـــى إحداهـــا : "كل ذنب يا أمير المؤمنين، وإن عظم، صغير فى جنب عفوك، وكل زلـــل، حقير عند صفحك، وذلك الذى عودك الله فأطال مدتك وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع بك الشر؛ هذه رقعة الواله ترجوك فى الحياة لنوائـــب الدهـــر، وفى الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفـــى واســـتكانتى وقلـــة حيلتى، وأن تصل رحمى، وتحتسب فيما جعلك الله طالبا وفى راغبا، فـلفعل، وتذكر من لو كان حيا لكان شفيعى إليك" (بلاغـــة الكتـــاب فـــى العصـــر العباسى، ص١١٩؛ جمهرة رسائل العرب، أحمد زكى صفوت،٣/٣٧٤).

وقد أجابها المأمون برسالة قال فيها:"وصلتنى رقعتك يا أماه حـــاطك الله وتولاك بالرعاية، ووقفت عليها وساءنى ــ شهد الله ــ جميع ما أوضحت فيها، ولكن الأقدار نافذة، والأحكام جارية، والأمور متصرفة، والمخلوقـــون فى قبضتها لا يقدرون على دفعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حـــى إلـــى ممات، والغدر والبغى حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه، وقد أمـــرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدى ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنـــا بعد ذلك أكثر مما تختارين، والسلام".(جمهور رسائل العرب، ٣/٣٧٥).

وقالت زبيدة أيضا للمأمون بعد أن قتل ابنها: "الحمد لله الذى ادخـوك لما أثكلنى والدى، وما ثكلت ولدا كنت لى عوضا منه". فلما خرجـــت؛ قـــال المأمون : "ما ظننت أن نساء جبلن على مثل هذا الصـــبر" (العقـــد الفريـــد، ٢/٢٧٣-٢٧٤).

ونلمح فى رسائل زبيدة قدرة لغوية وأدبية عالية، إضافة إلى الحنكـــة

السياسية والسلوك الأخلاقى الرفيع، فقد ذكر أحد مشاهير الكتاب فى عصرها وهوعمرو بن مسعدة (كاتب المأمون) عندما أشير إلى توقيعات جعفر بن يحيى (وكان مشهورا بدقته وبلاغته فى التوقيعات)، فقال : " قرأت لأم جعفر فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا، وأجمع للمعانى". (أدب الكاتب، ص٣٩؛ صبح الأعشى، ١/٦٤). وفى هذا الجانب أشير إلى فطنتها ودقة نظرها فى الكتب التى تصدر من كتبتها؛ فحين كتب لها أحدهم "وأدام كرامتك" أرجعت الكتاب إليه بعد أن وقعت فى أسفله " أصلح كتابك؛ وإلا صرفناك من عملك". فلما تسلم توقيعها لم يتنبه للخطأ. حتى عرضه على بعض إخوانه فرأى فيه هذا الدعاء فقال له : "إنها تخيلت أنك دعوت عليها، فإن كرامة النساء فى دفنهن"، فغير ذلك، وأعاد الكتاب إليها فقبلته (صبح الأعشى،١/٦٤؛الوصايا فى الأدب العربى القديم، سهام الفريح).

النساء وفن الغناء

علية بنت المهدى:

لقد اهتم العرب منذ عصور متقدمة بفن الغناء، شأنهم شأن كثير من الأمم، وقد تصاعد الاهتمام به فى العصر العباسى نتيجة ازدهار الحركة الفكرية والفنية، وكذلك نتيجة المستوى الحضارى الرفيع الذى وصل إليه المجتمع فى تلك الحقبة، حتى وجدنا النساء من طبقة الأمراء والحكام يسهمن فى نشاط هذه الحركة الفنية، فتبرز إحداهن وهى علية بنت المهدى (ذات المكانة والشرف) فى هذا الفن. وقيل إنها أصابت كثيرا فى فنون الغناء وأصوله، والضرب على الأوتار، واصطناع الألحان، حتى نسب إليها ما يزيد عن السبعين صوتا (أى لحنا). وكانت تناقش مع المغنين والشعراء

وضع الألحان، ولها فى هذا الجانب الأخبار الطوال، ومن ذلك أخبارها مع أخيها إبراهيم المهدى، صاحب أشهر مدرسة فى الغناء فى ذلك العصر، وكذلك مع إسحق الموصلى وغيرهما. ولعل دورها فى وضع الألحان ونظم الشعر وتلقينه الجوارى، وكذلك ما أضافته من جديد على هذا الفن، يمكننا من أن نعدها رأس المدرسة الثالثة فى هذا القرن، التى أضافت الكثير إلى مدرستى أخيها إبراهيم وإسحق الموصلى. وقد تحدث عنها صاحب الأغانى وعن نشاطها الفنى فقال : "وكانت من أجمل النساء، وأحسن الناس، وأظرفهم، رقيقة الشعر، لطيفة المعنى". وقال أيضا "وكانت علية بنت المهدى من أحسن الناس وأظرفهم؛ تقول الشعر الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة". وقيل أيضا : "ما اجتمع قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى، وأخته علية، وكانت تقدم عليه".

المرأة العربية والشعر:

كان للمرأة العربية مكانتها فى نفوس الرجال فى مجتمعها، حتى استحوذ الحديث عنها على الجانب الأكبر من شعرهم، فهى مصدر الإلهام ومصدر الوحى والشعر لهم، وهى لم تكن فى الوضع الأدنى قدرا من الرجال، وخاصة المرأة الحرة الشريفة؛ إذ كانت تخالط الرجال فى المجالات المختلفة، وتشارك فى الحياة الفكرية عامة والأدبية والفنية خاصة، ولئن كان منهن من لم يزاولن فن الشعر فلدى الكثيرات منهن القدرة العالية على نقده وتمييز جيده من رديئه. وكان هذا النقد يقدم فى محافل يحضرها الرجال ومنهم الشعراء، حيث كان الاختلاط بينهم متاحا دون ريبة أو انحلال، ولكن فى أجواء يسودها الوقار والحشمة، وإلا لما سمح كبار القوم وساداتهم

لنسائهم بهذه الفسحة من الحرية. وإن تراثنا العربى القديم زاخـــر بالأخبـــار والمواقف التى تشير إلى هذا الجانب، سواء ما كان فى عصر ما قبل الإسلام أو فى عصر الإسلام [1]. وسوف نستعرض فيما يأتى بعض المواقف علـــى سبيل المثال لا الحصر، لكى تكون دليلنا الواضح على ما نذهب إليه، فـــأول من تصادفنا منهن سكينة بنت الحسين.

ويروى عنها أنه اجتمع بالمدينة مجموعة من رواة الشعراء، فـــادعى كل راوية فضل صاحبه على الآخرين، ثم اتفقوا أن يتجـــهوا إلـــى ســـكينة ليحتكموا إليها فى ذلك، فقالت لصاحب جميل: أليس صاحبك الذى يقول:

فيا ليتنى أعمـــى أصـــم تقودنـــى بثينةُ لا يخفـــى علـــىَّ كلامُـــها؟

قالت : رحم الله صاحبك فإنه صادق فى شعره.

وقالت لصاحب جميل أيضاً فى شعر آخر له:

فلو تركت عقلى معى ما طلبتـــها ولكن طلابيها لما فات من عقلـــى
فإن وجدت نعل بـــأرض مضلـــة من الأرض يوماً فاعلمى أنها نعلى
خليلى فيما عشـــتما هـــل رأيتمـــا قتيلاً بكى من حب قاتلـــه قبلـــى

ما أرى لصاحبك هوى؛ إنما يطلب عقله؛ قبح الله صاحبك وقبح شعره.

ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذى يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فـــإن أمـــت فواحزنى من ذا يهيم بها بعـــدى؟

---

[1] ويذكر ابن رشيق أن عائشة (رضى الله عنها) كانت كثيرة الرواية للشعر، ويقال إنها كانت تروى جميع شعر لبيد. (العمدة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٤، ص٣٠).

كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده؛ قبح الله صاحبك وقبح شعره.

ومما يروى أيضاً عن نقدها لبعض الشعراء أنه مر بها الشاعر الفرزدق مسلّماً، فقالت له:

يا فرزدق؛ من أشعر الناس؟ قال أنا. قالت : كذبت، أشعر منك جرير الذى يقول:

بنفسي من تجنُبُهُ عزيزٌ ... عليَّ ومن زيارته لمامُ
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقني إذا هجع النيامُ

فقال : والله لو أذنت لأسمعتك أحسن منه. وعاد إليها فى الغد: فأعادت عليه القول نفسه فى تفضيل جرير عليه فى قوله:

لولا الحياء لعادنى استعبارُ ... ولزرت قبرك والحبيب يزارُ

وكذلك فى اليوم الثالث فضلت عليه جريراً فى قوله:

إن العيون التى فى طرْفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يُحْيين قتلانا
يصْرَعْنَ ذا اللُّب حتى لا حراك به ... وهُنَّ أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتم مقلة إنسانها غرق ... هل ما ترى تاركا للعين إنسانا

(انظر : الأغانى، ٦/٩٣-١١٨).

وحين أنشدها قصيدته التى أولها:

أشاقَكَ برقٌ آخر الليل واصِبُ ... تضمَّنه فرْش الجَبَا فالمساربُ
تألق واحْمَوْمى وخيَّم بالرُّبى ... أحمُّ الذرى ذو هيدبٍ متراكبُ
إذ زعزعته الريح أرْزَمَ جانبٌ ... بلا خُلْف منه وأو مَضَ جانب
وهبت لسُعدى ماءَه ونباته ... كما كُلُّ ذى وُدّ لمن ودَّ واهبُ

لتروى به سعدى ويروى مَحلُّـها وتغـدقَ أعـداد بـه ومشـارب

قالت سكينة: أتهب لها غيثاً عاما جعلك الله والناس فيه أسـوة؟ فقـال : يـا بنت رسـول الله (ﷺ)، وصفت غيثاً فأحسنته وأمطرته وأنبتّه وأكحلتـه ثـم وهبته لها، فقالت: فهلا وهبت لها دنانير ودراهم.

وإلى جانب الشخصيات النسائية ذات المكانة والشرف هناك بعـض النساء اللواتى نلن شهرة حفظتها لنا كتب التراث لتعلق مشـاهير الشـعراء بهن، ومنهن عزة التى وسم كثيِّر بها؛ فقد كانت تنقد شعره وتفضـل غـيره عليه، كقولها له: إنى رأيت الأحوص ألين جانبا عند الغوانى منك فى شعره، وأضرع خداً للنساء، وإنه الذى يقول:

يا أيها اللائمى فيـها لأصرمـها أكثرت لو كان يُغنى عنك إكثـارُ
أكثرْ فلست مُطاعا إذْ وشـيتَ بها لا القلب سـالٍ ولا فى حبها عارُ

أضافت : ويعجبنى قوله:

كم من دنىّ لها قد كنـت أتبعـه ولو صحا القَلْبُ عنها كان لى تَبَعـا
لا أستطيعُ نُزوعاً عـن محبّتِـها أو يصنع الحبُ بىّ فوق الذى صنعـا
أدعو إلى هجرها قلبـى فيتبعنـى حتى إذا قلت هذا صـادق نَزَعَـا
وزادنى رغبة فى الحَبِ أن منعتْ أشهى إلى المرء من دُنياه ما منعا

وأضافت أيضاً: وقوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الـهوى فكنْ حجراً من يابس الصخر جلْمَـدا
وما العيشُ إلا ما تَلَـذُ وتشـتهى وإن لام فيـه ذو الشـنان وفنـدا
وإنى لأهواهـا وأهـوى لقاءَهـا كما يشتهى الصادى الشراب المـبردا

علاقة حب لجّ فى سنن الصبّا فأبلى، وما يزدادُ إلا تجددا

فرد عليها كثير بقوله : قد والله أجاد فما استقبحت من قولى؟ قالت:

وكنت إذا ما جِئْتُ أجللن مجلسى وأظْهَرنَ منّى هيبة لا تجهُما
يُحاذرن منى غيرة قد عَرَفْنها قديما، فلا يضحكن إلا تبسُّما
تراهن إلا أن يخالسْنَ نظرة بمؤخر عين أو يقلبن معصما
وكن إذا ما قُلْنَ شيئاً يسرُّه أسرّ الرضا فى نفسه وتحرّما

ثم قالت، وقولك:

وددت وبيت الله أنك بكْرةً هِجَانٌ، وأنى مُصعبٌ ثم نهربُ[1]
كلانا به عُرٌ فمن يرنا يقلْ على حسنها جرباء تعدى وأجرب[2]
نكون لذى مال كثير مغفل فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نؤذى ونضرب

فقالت : ويحك ! لقد أردت بها الشقاء، أفما وجدت أمنية أوطأ من هذه؟ فخرج خجلا (زهر الآداب،٢/٤٠٥-٤٠٧)

ونقدها لشعره يذكرنا بنقد أبن ابى عتيق لعمر بن أبى ربيعة عندما قال:

بينما ينعتنى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر

---

[1] هجان : بيضاء ، والمصعب : الفحل.

[2] العر : بالفتح والضم : الجرب.

قـــالت الصغـــرى وقـــد تيمتـــها قد عرفناه وهـــل يخفـــى القمـــر

فقال له أبن عتيق : أنت لم تنسب بها (يعنى المرأة) وإنما نسبت بنفسك. كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى، فوضعت خدى فوطئت عليه. (الأغـانى، ١/١٢٢-١١٣).

ويعنى ذلك أن علاقة الحب يجب أن تقوم على مفاهيم وقيم هى مـــن أخلاق الفروسية العربية القديمة، وذلك بأن يبادر الرجل وليس المـــرأة، وأن يكتنفه الخضوع والخنوع فى سبيل الوصول إلى المرأة، وليس هذا واضحـــا فحسب فى نقد عزة، ولكنها أشارت إلى بشاعة ألفاظ الشاعر، مثل الجـــرب، وتمنيه أن يلتقى هو ومحبوبته بتلك الحال.

وهناك خبر الثريا بنت على بن عبد الله بـــن الحـــارث بـــن أميـــة الأصغر[1]، مع الوليد بن عبد الملك وهو خليفة، فبينما هى عنـــد زوجـــة أم البنين، دخل عليهما الوليد، قال : من هذه عندك؟ قالت : الثريا. جاءتك تطلب إليك فى دين عليها وحوائج لها، فأقبل الوليد عليها يسألها عن شعر عمر بـــن أبى ربيعة فيها عندما تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عـــوف الزهـــرى، ضارباً المثل لها بالنجمين : (الأغانى ١/٢٢١ - ٢٢٢).

أيـــها المنكـــح الثريـــا سُـــــهيلا عَمْـــرَكَ الله كيـــــف يلتقيـــانِ
هـــى شـــاميَّةٌ إذا مـــا اســـــتقلَّت وســـهيلٌ إذا اســـــتقلّ يمـــانى

---

[1] كانت الثريا موصوفة بالحسن والجمال، وقد تزوجها سهيل بن عبد الرحمن، فنقلها إلى مصر (انظر زهر الآداب، الحصرى القيروانى ،١/٢٨٩-٢٩١).

فردت على الوليد قائلة : نعم أما إنه - رحمه الله - كان عفيفاً، عفيف الشعر، أروى له قوله:

ما على الرسم فى البليين لوبيـــ ـــن رَجْعَ السلام أو لـــو أجابـا
فإلى قصر ذى العُشـــيْرةِ بالصـــا نف أمســـى مـــن الأنيـــسِ يَبابـا
وبما قد أرى بـــه حَـــيٌّ صـــدقٍ ظاهرى العيـــش نعمـــة وشـــبابا
وحســـاناً جواريـــاً خِفَـــراتٍ حافظاتٍ عند الـــهوى الأحســـابا
لا يُكـــثرنَ بـــالحديث ولا يتـــ بعـــن يَنعقـــنْ بالبـــهامِ الضِّرابـا

لم يكن هدفنا من ذكر هذا الخبر التدليل فحسب على ما أشرنا إليـــه سابقاً من امتلاك المرأة فى تلك العصور حرية التعبير عن مشـــاعرها فـــى أمور الحب والهوى فى حدود الحشمة والوقار وخاصة بين الحرائـــر، بـــل الإشارة كذلك إلى ذكاء هذه المرأة وفطنتها فى اختيارها هذه الأبيـــات مـــن شعر عمر بن أبى ربيعة للرد على الوليد، وقد تنبه الوليد إلى إشـــارة هـــذه المرأة فقال لزوجه: لله درّ الثريا، أتدرين ما أرادت بإنشادها ما أنشدت مـــن شعر عمر؟ قالت : لا. قال: فإنى لما عرضت لها بعمر، عرّضت بأن أمـــى أعرابية. فكان ردها على ما غمز إليه الوليد بعيداً عن التصريـــح المـــؤذى، وقائما على التلميح اللطيف الذى يكسوه الظرف والأدب.

وليست الثريا وحدها، وإنما هنالك الكثيرات غيرها ممن حبـــاهن الله بنصيب من الحكمة والفطنة والأدب. فهذه "عزة" يسألها عبد الملك بن مروان بقوله : أنت عزة كثير؟ قالت : أنا أم بكر الضمرية. قال : يا عـــزة، هـــل تروين من شعر كثير شيئاً؟ قالت : ما أعرفه، ولكن سمعنا ينشدون له:

قضى كلُّ ذى دين فوفَّى غريمـــهُ وعَزَّةُ ممطـــولٌ مُعنـــىً غريمُـــها

قال : فتروين قوله :

وقد زعمت أنى تغـــيرت بَعْدَهـــا ومَنْ ذا الذى يـــا عـــزّ لا يتغـــيرُ
تغـــير حـــالى والخليقـــة كـــالذى عَهِدْتِ، ولم يُخْبرْ بســـرك مخـــبر

ولم يتمكن عبد الملك من إثارتها بهذا القول، وإنما جاء ردها كسابقه متضمناً أبياتاً لكثير تؤكد إلحاحه على حبها، وهى معرضة عنـــه كـــالحجر الأصم، فى قولها: ما سمعت هذا، ولكن سمعتهم ينشدون:

كأنى أُنادى صَخْرةً حين أعرضتْ من الصمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زلـــتِ
غَضُـــوبا فمـــا تلقـــاك إلا بخيلة فمـــن مَلّ منها ذلك الوصـــل ملَّتِ

(زهر الآداب ١/٢٩١).

المرأة العربية وفن الشعر

لا خلاف فى أن المرأة العربية مقلة فى نظم الشعر فـــى عصـــوره المختلفة؛ لكن هذه الظاهرة لا تشمل المرأة العربية دون غيرها من النساء فى الآداب الأخرى، وسبب ذلك أن المرأة بطبيعتها منصرفة إلى أدوارها الأولى بوصفها أماً وزوجة وغير ذلك من الأدوار، لـــذا تتجـــه المـــرأة بوجدانـــها واهتمامها إلى هذه الأدوار قبل غيرها، لكنها متى أتيح لـــها مـــن الفـــرص المُعينة على تنمية قدراتها الفنية فى نظم الشعر ما يتاح للرجل، وجدناهـــا لا تقل عن الرجال فى هذا المجال.

لذا سيكون هدفنا فى هذه الدراسة إلقاء الضوء على مكانة المرأة ودورها فى الشعر العربى فى عصوره المختلفة، بدون أن نتحرى حصر الشخصيات النسائية أو رصد جميع أشعارهن، ويكفينا هنا الوقوف عند بعض الشاعرات، والكشف عن جوانب مختلفة فى أشعارهن، وغايتنا هى تبيان قدراتهن الإبداعية فى هذا الفن، والوقوف على آراء النقاد فى الماضى والحاضر حول أشعارهن.

ولعل أبرز الفنون الشعرية التى كثر الحديث حولها فى شعر النساء فن الرثاء، الذى غلب على الكثير من أشعار النساء فى الماضى، حتى دفع هذا الأمر كثيراً من الباحثين إلى التشكيك فى قدرات المرأة على النظم فى الفنون الشعرية الأخرى، وكان مثالهم فى هذا الجانب، الشاعرة المشهورة (الخنساء)، التى أوقفت شعرها على فن الرثاء، بعد أن فجر موت أخيها صخر قريحتها الفنية فأبدعت وأجادت فى هذا الفن دون غيره من الفنون الشعرية. على أن الاقتصار على فن واحد عند الخنساء ما كان ينبغى أن يدفع بعض النقاد المحدثين إلى وصف هذه الحالة الفنية بالضعف الذى هو من طبيعة النساء ــ على حد قولهم ــ أو "وثيق الصلة بنفوسهن، وسرعة انفعالهن، فهن مرهفات الشعور، فياضات العيون ضعيفات الاحتمال.. وأحَدُّ فى اللوعة من الرجال" ــ (الأصول الفنية للشعر الجاهلى، سعد إسماعيل شلبى، ص٣١٢).

إن الاقتصار على فن واحد ليس بجديد على الشعر العربى؛ فهناك عمر بن أبى ربيعة الذى أوقف شعره على فن الغزل فى العصر الأموى، وكذلك العباس بن الأحنف فى العصر العباسى، وقد تحدث النقاد والأدباء

قديما وحديثا عن شعر كل منهما واستحسنوه أيما استحسان.

واللافت للنظر التباين الواضح فى الموقف بين النقـــاد المتـــأخرين والنقاد المتقدمين من النساء الشاعرات، ففى الوقت الـــذى أنصفـــها النقـــاد القدماء، وتحدثوا عن قدرتها الفنية، وتميز البعض منهن، نجد المحدثين قـــد شككوا فى هذه القدرة، ونذكر على سبيل المثال ما قالـــه المتقدمـــون عـــن الخنساء وليلى الأخيلية، مثل "المبرد" الذى رأى أنهما فى أشعارهما تتقدمـــان أكثر الفحول (زهر الآداب ، ص٩٩٩). ولما هجا دريد بن الصمة الخنســـاء، ردت عليه بمثل هجائه، ومن ثم قال "بشار" عنها فيما بعـــد : "تلـــك غلبـــت الرجال" (الأغانى٦٣/١). فالخنساء التى طغت عليها مشاعر الحزن والألـــم تفجرت فيها موهبة النظم فى فن الرثاء، ولولا غمامة الحزن هذه، لنظمت فى فنون أخرى. وعندما رأى أحد المتأخرين إحداهن تجاوزت مـــا كـــان فـــى اعتقاده من حدود النظم حيث أخذت تهدد أعداءها، وتتوعدهم بالغارة عليـــهم بألفاظ جزلة شديدة الوقع كقولها : (ديوان الحماسة، ص٣١٨).

وحـــرب يضـــج مـــن نفيانـــها[1] ضجيج الجمال المجلة[2] الدبـــرات
سيتركها قـــوم ويصلـــى بحرهـــا بنو نســـوة للثكـــل مصطـــبرات
فإن يك ظنى صادقا وهو صادقى بكـــم وبأحـــلام لكـــم صفـــرات

عقب على هذا بأن هذه نزعة نادرة فى شعر النساء فى الماضى لأن المـــرأة تشعر فى قرار غريزتها بالضعف، وتستمد قواها من قومها، ومن الرجـــال الذين تتغنى عادة بقيامهم بحمايتها. إذن فالمتأخرون لا يجدون إبداع المـــرأة

---

[1] نفيانها : ما تطاير من دمائها.

[2] المجلة : المسنة.

الشعرى إلى فى فن الرثاء.

وقد نجد من المتأخرين من كان منصفاً فى حكمه على قدرة المـــرأة الشاعرة؛ ومن هؤلاء أحمد حسن الزيات فى قوله :" ليس فى شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفُوق الخنساء فى رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جرْسه، ولربما ضارعت فى هذه الصفات الشعراء الفحول، ويـــرى النابغـــة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال، لما فى شعرها من قوة الرجولة ورقـة الأنوثة، وقد غلب فى شعرها الفخر والرثاء؛ أما الفخر فلأن أباها أمثلُ قومه، وأخويها خيرا مضر، وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطـــول وجْدهـــا عليـــهم، والأسى يُدق الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة فى الرجال، فكيف بـــه فى المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتـــلا فاض الدمع من عينها، والشعر من قلبها، فأتت فى رثائها بالمعجب المعجـز، وظلت الخنساء فى شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليـــلاً" (تاريخ الأدب العربى، ص١٥٠).

وقد ذهب بعض المتأخرين إلى أن المرأة العربيـــة فـــى العصريـــن الجاهلى والإسلامى لم تتمكن من التعبير بشعرها عن حياتها، وأن تميزهـــا وإبداعها، وصدق التعبير عن حياتها فى شعرها، إنما كـــان فـــى العصـــر العباسى. يتضح هذا فى قول الدكتورة وديعة النجـــم: "فالشـــاعرة العباســـية أصدق تعبيراً عن حياتها، وأكثر جرأة فى تناول الموضوعات، حينما أتيحت لها فرصة التعبير والمشاركة، وبينما تميز شعر المرأة فى العصور الســـابقة بالقدرة على البكاء والرثاء خاصة، انطلقت فى هـــذا العصـــر لتنظـــم فـــى

موضوعات تكاد تكون جديدة فى عصرها"* وقد أوردت أبياتاً معدودة للتدليل على قولها، منها أبيات لعلية بنت المهدى:

البس المـــاء مدامـــا واســـقنى حتـــى أنامـــا
وأفـض جـودك فـــى النـــا س تكـــن فيـــه إمامـــا
لعـــن الله أخـــا البخـــ ـل وإن صلـــى وصامـــا

وأوردت أيضاً لإحدى نساء البلاط العباسى اللواتى روى لهن هـــذا النمط الجرىء من الشعر قولها:

بالله قولوا لـــى لمـــن ذا الرشـــا المثقل الـــردف الـــهضيم الحشـــا
أظرف ما كـــان إذا مـــا صحـــا أملـــح النـــاس إذا مـــا انثنـــى
وقـــد بنـــى بـــرج حمـــام لـــه أرســـل فيـــه طـــائرا مرعشـــا
يا ليتنـــى كنـــت حمـــاما لـــه أو باشـــقاً يفعـــل بـــى مـــا يشـــا

(مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، ص٢٣٩).

ثم أيهما أكثر جرأة فى التعبير: علية بنت المهدى ومن عاصرتها؛ أم "عشرقة المحاربية" عندما صارت عجوزاً فقالت تذكر ماضى أيامـــها؛ فقـــد جاءت أبياتها بمعانٍ عميقة ولغة منتقاة جميلة فى الموضوع نفسه الذى طرقته الشاعرة العباسية، ألا وهو موضوع الحب (شاعرات العرب، ص١٠):

جَرَيْتُ مَعَ العُشاقِ فى حَلْبَةِ الـهوى ففُقْتَهُم سَبْقاً وجئتُ علـــى رسْـــلى

---

* نعثر على رأى للدكتورة وديعة ضمن ورقة قدمتها فى المؤتمـــر الإقليمـــى الأول للمـــرأة فـــى الخليـــج العربى(٢١أبريل ١٩٧٥) تقول فيها ما لا يتفق مع ما ذكرته آنفا فى شأن المرأة فى ذلك العصر، فـــهى (أى الجارية) "لا تطلب الحرية ولا المساواة ولا الحق الاجتماعى؛ فهى طوع ما يرتضيه ويريد لـــها المجتمـــع الذى يتخذ منها أداة لمتعه وحياته اللاهية.. ولذلك فأدب الجوارى ــ فى ظنـــى ــ لا يمثـــل كـــل التمثيـــل مساهمة المرأة فى الأدب، أو أمانيها أو قيمها التى تؤمن بها" (ص٧١).

فما لبس العُشاقُ من حُلَلِ الـــهوى ولا خلعوا إلاّ الثياب التـــى أُبلـــى
ولا شربوا كأسا من الحُبِّ مُـــرَّة ولا حلـــوة إلا شـــرابهمُ فضلـــى

فهى تسخر وتتهكم على كل من قال فى الحب شعراً، أو وصف فيـــه لهواً، لأنهم لم ينالوا ما نالته فى شبابها، ولم يكن لهم من الهوى ــ على حـــد قولها ــ إلا فضلتها.

وقد جاءت تلك النماذج المتأخرة معبرة خير تعبـــير عـــن بســـاطة المعنى، وبساطة اللغة ولينها وقربها من لغة الحياة اليومية ومن لغة النـــثر، لولا الوزن والقافية. أما ما جاء فى قولها (أكثر تعبيراً عن حياتها) فهى لـــم تعبر عن جوانب عدة من حياتها، بل عبرت عن عاطفتها بأســـلوب فـــاضح مكشوف، يرفضه الذوق كما بيناه فى دراستنا (الجوارى والشعر فى العصر العباسى)، حيث بينا أن من ظهرن على سطح الحياة الأدبيـــة وبـــرزن فـــى الشعر من النساء فى ذلك العصر كن الجوارى والقيان؛ وقد كن أكثر جـــرأة وصراحة فى شعر الغزل من غيرهن من الشاعرات فى العصور الســـابقة، وذلك بسبب طبيعة حياة هؤلاء النسوة التى أمضينها بين الرجال فى الحانـات وفى دور القيان، فإذا كن فى القصور فهن سرائر وجوار ولســـن كـــالمرأة الحرة الشريفة. ولعل فى قول مصطفى الشكعة ما يتفق مـــع مـــا ذكرنـــاه : "عُرفت المرأة العربية بقول الشعر فصيحاً بليغاً فـــى الجاهليـــة والإســـلام، وعصر بنى أمية، وكان أمراً طبيعياً أن تنبغ شاعرات من بين النســـاء فـــى عصر بنى العباس، غير أن طبيعة الحياة العباسية لم تقدم لنا الشاعرة الحـــرة القول، العفيفة المشاعر، النقية الحب على ما ألفنا فى الشعر العربى، وألفنـــا

نحن بالنسبة للعصور السابقة. صحيح أنه وجد بين الشـــاعرات الجاهليـــات والإسلاميات من غرقن فى الحب واكتوين بلوعته، ولكن واحدة منـــهن لـــم تخرج عن الجادة، ولم تترخص أو تتهافت كما فعل أكثر شاعرات العباسـية. ولا زالت بعض أنغام العفة تترنح فى دلال على عتبات أسماعنا فى قول ليلى الأخيلية لصاحبها توبة الحميرى، وقد ظنت أنـــه أراد بـــها ريبـــة (الشـــعر والشعراء، ص٤٥٥) :

وذى حاجة قلنا له لا تبـــح بـــها فليس إليـــها مـــا حييـــت ســـبيل
لنا صاحب لا ينبغـــى أن نخونـــه وأنت لأخرى صـــــاحب وخليـــل

المرأة والشعر قبل الإسلام

وقد نظمت المرأة فى فنون الشعر المختلفة، فى العصور المتقدمـــة، وليس كما قال النقاد المحدثون بأن " المديح والغزل مثلا من الفنـــون التـــى قصرت دونها مواهب النساء الشواعر"، متهمين شعر المرأة ــ كما رأينـــا ــ بالوقوف عند الرثاء والبكاء، لذا لن نقف عند الخنساء وديوانها؛ فقـــد أشـــبع شعرها نقدا وتحليلا، أو عند بعض الشاعرات اللواتى غلب علـــى شـــعرهن البكاء فى فن الرثاء، مثل (حزيق بنت بدر بن هنان عمة الشاعر طرفة بـــن العبد)*.

ومن النساء اللائى عبرن عن عاطفة الحب بشعرهن ولم ينلن الشهرة

---

* لها ديوان مطبوع بتحقيق الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب ١٩٦٩، وفى مقدمته ترجمة وافية لـــها (ص٢٩-٣١). نتتقى هنا بعض أبيات لها تفتخر فيها بشجاعة أهلها وكرمهم:

لا يبعدن قومى الذيـــن هم سم العداة وآفـــة الجـــزر
النازلين بكـــل معتـــرك والطيبين معـــاقـــد الأزر
وإذا هم ركبوا سمعت لهم زجلا مـــن التأييه والزجر

التى نالتها غيرهن من الشاعرات " أم الضحاك المحاربية"؛ وقيل إنها كانت "تحب الضبابى حبا شديدا ولم يتزوجها، فقالت فيه ما قالت من شعر الغزل (الأعلام، الزركلى، ٣/٢١٤). وفى رواية أنها تزوجت منه وأحبته حبا شديدا وقد طلقها فقالت فيه الشعر (شاعرات العرب، ص ٦٤) ومن أشعارها فى زوجها:

يا أيها الراكب الغادى لطيته ... عرج أبتك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم ... إلا ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضاه وأنى فى مسرته ... ووده آخر الأيام أجتهد

وهذه (فاطمة بنت مر)، وهى كما ذكرتها كتب الأدب كانت من فضليات بنى خثعم؛ وهى كاهنة، أرادت أن يتزوجها عبد الله أبو النبى (ﷺ) وتعطيه مائة من الإبل، فقال لها ما ذاك إلى وإنما أنا راجع إلى إرادة أبى. وزوجه أبوه آمنة بنت وهب الزهرية، فقالت فاطمة:

إنى رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم القطر
فسما بها نور يضىء به ... ما حوله كإضاءة البدر
ورأيت سقياها حيا بلد ... وقعت به وعمارة القفر
فرجوته فخرا أبوء به ... ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت ... منى الذى سلبت وما تدرى

(شاعرات العرب، ص ١٢٣)

وقد فاقتها جرأة فى التعبير امرأة أخرى تدعى زينب بنت فروة التميمية، عندما أخذت تفخر بأمها الأعجمية، وهى تعيش فى عصر هو

عصر ما قبل الإسلام، حيث تغمر أهل الجزيرة قيم العصبية القبلية والتنابز بالألقاب، ومفاخرة العرب على غيرهم من الأقوام:

وإن ابنة الدهقان كسرى تنولت ... بطعن الكماة واختلاس المعابل
ولم يحتطب أمي على غير ثلة ... ولم يحتطب إلا بطعن المقاتل
إلى الموردات الموت والمصدراته ... أولات المنون كالقنى الدوابل
فطارت لوادى الزند لا واهى القوى ... ولا برم نكس كثير الغوائل
من اللابسات الريط زهراء لم تبت ... تحش من الآما وقود المراجل
ولم يبر فى أفناء مرة مثلها ... ولا عند قيسى غنيمة قافل

(شاعرات العرب، ص ٩٤)

وهذه امرأة شابة تصف زوجها الشيخ العجوز بقولها : (شاعرات العرب، ص٩٠).

شننت الشيوخ وأبغضتهم ... وذلك من بعض أفعاليه
ترى زوجة الشيخ مغبرة ... وتمشى لصحبته قاليه[1]

فقد استطاعت هذه المرأة أن تعبر عن نزعاتها، وتجهر بالحقيقة الصارخة، التى تعمى بعض الرجال الشيوخ، فتدفعهم نزواتهم إلى الزواج من الفتيات اليانعات، فتكون نتيجة هذه الزيجة وبالا عليهم، وعلى هؤلاء الزوجات، فتتحول حال الزوجين إلى شقاء، وعندئذ تكون المرأة أشد شقاء ومرارة، كالتى أشارت إليها هذه المرأة.

---

[1] أهملنا البيت الأخير لما فيه من ألفاظ مكشوفة.

وعند المقارنة بين ما أوردناه من شواهد، والشواهد التـــى أوردتـــها د. وديعة، نلاحظ التباين الواضح فـــى فضـــل المتقدمـــات مـــن جاهليـــات وإسلاميات فى جودة أشعارهن، وقوة تعبيرهن عن جوانـــب مختلفـــة فـــى حياتهن، عن هؤلاء الشاعرات فى العصر العباسى.

ونعود ثانية إلى أم الضحاك وشعرها الصريح فيمن تعلقت به:

لا يـــأمنن بعـــدى عطيـــة حـــرة ... من الناس أو جار كريم يجـــاوره
وكنت وإياه كذى الكلب لم يـــزل ... يسـمته حتـــى اسـمدر يسـاوره
فلما أبى إلا الحماقـــة لـــم أجـــد ... له مثل ما يكوى فينضج نـــاظره

ففى هذه الأبيات تعبر المرأة عن عاطفة متأججة تجاه هذا الرجـــل، وتصف عاطفتها بأنها تفوق شوقا ووجدا جميع المحبين، وقالت أيضا وكأنـها تسأل المحبين عما يشفى المحب من تباريح الهوى الذى يتبوأ مكانـــه بيـــن الجوانح والصدر:

سألت المحبيـــن الذيـــن تحملـــوا ... تباريح هذا الحب ســـالف الدهـــر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدمـــا ... تبوأ ما بيـــن الجوانـــح والصـــدر
فقالوا شفاء الحـــب حـــب يزيلـــه ... من اخر أو نأى طويل على هجـــر
أو اليأس حتى تذهل النفس بعد مـــا ... رجت طمعا واليأس عون على الصبر

فكان ردهم: حب آخر يزيله وينسى صاحبه، أو نأى وهجر طويـــل، أو أن يقنع المحب نفسه بفقدان الأمل من هذا المحبوب. وتمضـــى الأبيـــات فتصف هذه العاطفة وكيف تتكون فى قلب المحب من سمع أذن أو نظرة عين

أو حنة قلب:

أرى الحب لا يفنى ولم يفنه الأُلـى ... أحينوا وقد كانوا على سالف الدهر
وكلـهم قـد خالـه فـى فـؤاده ... بأجمعه يحكون ذلك فـى الشـعر
ولو كان شيء غيره فنى الـهوى ... وأبلاه من يهوى ولو كان من صخـر

وقالت :

هل القلب إن لاقى الضبابى خاليـا ... لدى الركن أو عند الصفا متحـوج
وأعجلنا قـرب الفـراق وبيننـا ... حديث كتتشيج المريضين مزعـج
جيث لو ان اللحم يشوى بحـره ... طربا أتى أصحابه وهو منضـج

ففى هذه الأبيات استطاعت هذه الشاعرة أن تصور لحظة الفراق بين المحبين أحسن تصوير (شاعرات العرب، ص ص ٦٥ ــ ٦٦):

وقالت :

ألم تر أهلـى يـا مغـير كأنمـا ... يفيئون باللومـاء فيـك الغنائمـا
ولو أن أهلـى يعملـون تميمـة ... من الحب تشفى قلدونى التمائمـا

وهى فى أبياتها هذه تشير إلى ما كان معتقدا فى أيام الجاهليـة فـى تعليق التمائم لتشفى المحب من داء الحب أو العشق الذى لا طائل منه. وهـذا الموروث نصادفه فى كثير من أشعار الجاهلين، وقالت وقد سئلت عنه:

تعزيت عن حب الضبابى حقبـة ... وكـل عمايـا جـاهل سـتثوب
يقول خليل النفـس أنـت مريبـة ... كلانا لعمرى قد صدقـت مريـب
وأريبنـا مـن لا يـؤدى أمانـة ... ولا يحفظ الأسرار حيـن يغيـب

ألهفا بما ضيعت ودى ومـــا هفـــا فؤادى بمن لم يدر كيـــف يثيـــب

وقالت :

ولم أنتبـــــه حتـــى وقفـــت بغيـــة من الغى ثم انجاب عنى غطائيـــا
فأقصرت عمـــا تعلميـــن ولا أرى أخا غية عنها انتـــــهى كانتـــهائيا

وإذا كانت أشعار هذه المرأة الجاهلية قد وردت فى بعض المصـــادر على أنها أشعار قالتها فى زوجها، فإن من النساء فى ذلـــك العصـــر مـــن صرحن بعاطفة الحب تجاه الرجل حتى وإن لم يكن زوجا، كما صرح بـــها الشعراء الرجال، دون فحش أو مجون كالذى صادفناه لدى الشـــاعرات فـــى العصر العباسى، حيث كان أغلبهن ــ كما سبقت الإشارة ــ من الجـــوارى والقيان. وهذه إحداهن، وهى (سعدى الأسدية) منعها أبوها من الزواج بـــابن عمها زوجها رجلا آخر. وقد اشتد وجد ابن عمها بها فأرسل إليها بيتين مـــن الشعر يشكو فيهما حبه، فأجابته : (شاعرات العرب، ص ٩١):

حبيبى لا تعجـــل لتفـــهم حجتـــى كفانى ما بى من بلاء ومن جـــهد
ومن عـــبرات تعـــترينى وزفـــرة تكاد لها نفسى تسيل مـــن الوجـــد
غلبت على نفسى جهارا ولم أطـق خلافا على أهلى بـــهزل ولا جـــد
ولن يمنعونى أن أموت بزعمـــهم غدا خوف هذا العار فى جدث وحدى
فلا تنس أن تأتى هنـــاك فتلتمـــس مكانى فتشكو ما تحملت من جـــهد

فجاءها فى الموعد فوجدها ميتة، فاحتملها إلى شعب بـــذرى جبـــل وضمها ملتزما لها فمات، ثم إن بعضهم وجدهما فأخبر عنـــهما فدفنوهمـــا.

وهكذا صور هؤلاء النسوة حالة الحب فى شعرهن أحسن تصوير، على نحو قد يعجز عن الجهر به بعض الرجال.

ونظم بعض النساء أشعارا فى الحكمة؛ منهن (جمعة بنت الخـــس)، وأختها "هند الخس". وقد وصفتهما كتب الأدب بالحكمـــة ورجاجـــة العقـــل والفضل. وهما وإن كانتا مقلتين فإن ما ورد من شـــعرهما يضـــاهى شـــعر الفحول من الشعراء فى فصاحة القول وجزالة التعبير على نحو يتناسب مـــع هذا الفن؛ قالت الأولى: (شاعرات العرب، ص ص ٧٦ــ٧٧).

أشد وجوه القول عند ذوى الحجـــا ... مقالـــة ذى لـــب يقـــول فيوجـــز
وأفضل غنـــم يســـتفاد ويبتغـــى ... ذخيرة عقـــل يحتويـــها ويحـــرز
وخير خلال المرء صدق لســـانه ... وللصدق فضل يســـتبين ويـــبرز
وإنجازك الموعود من سبب الغنـــى ... فكن موفيا بالوعد تعطى وتنجـــز
ولا خير فى حر يريـــك بشاشـــة ... ويطعن من خلف عليـــك ويلمـــز
إذا المرء لم يسطع سياسة نفســـه ... فإن به عن غيرهـــا هـــو أعجـــز
وكم من وقور يقمع الجهل حلمـــه ... وآخر من طيش إلى الجهل يجمـــز
وكم من أصيل الرأى طلق لســـانه ... بصير بحسن القول حيـــن يمـــيز
وآخـــر مـــأمون يلـــوك لســـانه ... ويعجن بالكوعين نوكـــا ويخـــبز
وكم من أخـــى شر قد اوثق نفســـه ... وآخر ذخر الخير يحوى ويكـــنز
يفر الفتى والموت يطلـــب نفســـه ... ســـيدركه لاشـــك يومـــا فيجـــهز

ففى هذا الأبيات تسجل (جمعة) بعض الصفات الكريمـــة والخلـــق النبيل الذى يرفع مكانة الإنسان بين الناس، وقد جاءت هذه المعـــانى بلغـــة

جزلة منتقاة، تتناسب مع المعانى الجليلة التى يرغب المرء فى التحلى بـــها، وهى صدق اللسان، وإنجاز الوعد، ووفاء المرء لصديقه وقرينه. وأشـــارت أيضا إلى أن المرء متى ما كان عاجزا عن سياسة نفسه، فمن المؤكـــد أنـــه سيكون عاجزا عن سياسة غيره.

ولجمعة أشعار أخرى تتحدث فيها عن الموت الـــذى هـــو محيـــق بالإنسان لا محالة، فى حين أنه يعيش فى دنياه كالنائم: (شاعرات العـــرب، ص٧٧).

رأيت بنى الدنيـــا كـــأحلام نـــائم ... وكالفىء يدنو ظلـــه ثـــم يقلـــص
وكل مقيم فـــى الحيـــاة وعيشـــها ... فلا شك يوما أنه سوف يشـــخص
يفر الفتى من خشية الموت والـــردى ... وللموت حتف كل حى ســـيغفص
أتاه حمام الموت يســـعى بحتفـــه ... وقد كان مغمورا بدنيـــا تربـــص
كـــأنك فـــى دار الحيـــاة مخلـــد ... وقد بان منها من مضى وتقنصـــوا
لقد أفسد الدنيـــا وعيـــش نعيمـــها ... فجائع تـــترى تعـــترى وتنغـــص
ألا رب مـــرزوق بغـــير تكلـــف ... وآخر محـــروم يجـــد ويحـــرص

فهذه الأبيات فى قوة ألفاظها ووضوح معانيها وتآلف موسيقاها قريبة من أشعار الحكمة عند عدى بن زيد العبادى والأعشى وطرفة ولبيد وزهـــير بن أبى سلمى.

أما أختها(هند) فكان لها من الشعر بقدر ما عثرنا عليه مـــن شـــعر (جمعة) وهما تلتقيان فى الموضوعات التى نظمتا فيها الشعر. ومـــن ذلـــك قولها (شاعرات العرب، ص ٨٧).

وجدت وخير القول فى نافع الحكم ... ذوى الطول مما قد يُغَـمُّ ويُلْبَـسُ
وليس الفتى عندى بشـــىء أعـده ... إذا كان ذا مال من العقل مفلـــس
وذو الجبن مما يسعر الحرب نفخه ... يهيج منـــها نارهـــا ثـم يخنـس
وكم من كثير المال يقبـض كفـه ... وكم من قليل المال يعطى ويسلس
وكم من صغـــير تزدريـــه لعلـة ... يـــهيج كبـيرا شـــره متبجـــس
وكم من مراء ذى صلاح وعفـــة ... يخاتل بالتقوى هو الذئب الأملـس
وآخر ذى طمرين صـــاحب نيـة ... يجود بأعمال التقـــى ثـم يَنْفُـس
وكم من ســـفيه للجماعـــة مفسـد ... يـدب لشـــر بينـــهم ويوســـوس
وذو الظلم مذموم الثنا ظاهر الخنا ... غنىٌ عن الحسنى وبالشر يعـرس

وقالت أيضاً : (شاعرات العرب، ص ص ٧٨،٧٩)*

لقد أيقنت نفس الفتى غير بـــاطل ... وإن عاش حيناً أنه سوف يـــهلكَ
ويشرب بالكأس الذعاف شـــرابُها ... ويركب حد الموت كَرها ويســـلك
وكم من أخى دنيـــا يُثَمِّـــر مالـــه ... سيورث ذاك المال رغماً ويـــترك
عليـــك بأفعـــال الكـــرام ولينـــهم ... ولا تَكُ مشكاســـا تلُـــجُّ وتمحـــك
ولا تك مزاحاً لدى القـــوم لعبـة ... تظل أخا هزء بنفســـك يضحـــك
تخوض بجهل سادرا فى فكاهـــة ... وتدخل فى غىِّ الغـــواة وتشـــركُ
ألا رب ذى حـــظ يبصِّـــر فعلَـــه ... وآخرَ مصروف به الحظُّ يؤفـــك

ففى أبياتها الأخيرة إشارة إلى قصر حياة الإنسان فـــى هـــذه الدنيـــا وكيف أن هذا يقتضيه أن يصرفها فى العمل الكريم. ويستوقفنا البيت الأخـير

* أردنا إثبات هذه المقطعات كاملة بدون إلغاء بعض أبياتها، وذلك لتماسكها، ولوحدة موضوعها.

من مقطوعتها، حيث يذكرنا بقول أبى تمام الذى يتضمن المعنى نفسه:

إذا كانت الأرزاق تجرى على الحجـا ... هلكن إذن مـن جهلـهن البـهائمُ

ووجدنا لها بيتاً واحداً فى مدح القلمسى وهو أحد حكماء العرب. وقد يكون هذا البيت ضمن قصيدة طويلة أو مقطوعة؛ إذ لا يمكن أن تعجز - مـن كانت لها هذه القدرات الفنية العالية - عن أن تنظم قصيدة كاملة فى المدح:

أشمُّ كنصل السيف جعـد مُرَجَّـلٌ ... شغفت به لو كان شـيءٌ مدانيـا

وأقسم لـو خـيرت بيـن لقائـه ... وبين أبى لاخـترت أن لا أباليـا

ومما يلفت النظر إلى ما مر فى أشعارهما نظمهما فى موضوعـات الحكمة وذكر الأخلاق الحميدة التى يحرص المرء على التحلى بها فى هـذه الحياة ويتخلل ذلك ذكر الموت، ونلحظ أيضاً التقارب بين لغتيهما، حتى بدت أشعارهما وكأنها لمبدع واحد، لشدة تقارب ما فيهما من معانٍ وألفاظ وتشابه.

أما شعر الغربة والحنين إلى الأوطان الذى جاء على لسان المـرأة، فمنه قول أم موسى الكلابية حين زوجها أبوها ونقلها زوجها إلى حُجر مـن بلاد اليمن، قالت: (شاعرات العرب، ص ٨٩).

ولله درى أى نظـرة نـاظر ... نظرت ودونى طخفـةٌ ورجامُـها

هل الباب مفروج فـأنظر نظـرة ... بعينى أرضاً عز عندى مرامـها

فيا حبّذا الدّهنـا وطيـبُ ترابِـها ... وأرض فضاء يصدح الليلُ هامُـها

ونصُّ العذارى بالعشيات والضحى ... إلى أن بدت وحى العيون كلامُـها

ولا يتبادر إلى الذهن أن المرأة تتوسل بمعانى الشوق إلى الوطن لتعبر عن الحب والشوق لرجل آخر، إذ كان من الواضح فيما صادفناه من أشعار النساء فى الغزل أنهن يصرحن فيه بما يعتلج فى صدورهن من الشوق والصبابة نحو الرجال الذين تعلقن بهم، دون خفاء، مادام فى حدود الأدب والحشمة*.

وتصادفنا امرأة أخرى هى زينب أم حسان الطيبة؛ فقد زوجوها واحتملوها من البادية إلى الحضر، وسألوها يوماً: أليس هذا الحضر أطيب مما كنت فيه بالبادية؟ فقالت: (شاعرات العرب،ص٨٦).

أقول لأدنى صاحبيّ أسيرُهُ ... وللعين دمعٌ يَحْذُرُ الكُحلَ ساكبُه
لعمرى لنهر باللوى نازح القذى ... بعيد النواحى غيرُ طرقٍ مشاربه
أحب إلينا من صهاريج ملئت ... للعبٍ ولم تملُح لدىّ ملاعبه
فيا حبذا نجدٌ وطيب ترابه ... إذا هضبته بالعشىّ هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت ... ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه
وأقسم لا أنساه مادمت حية ... وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولازال هذا القطر يُسفر لوعة ... بذكراه حتى يترك الماءَ شاربُه

فهذه المرأة لم تأخذها حياة الحضر وما فيها من ترف ونعيم عن حياتها فى البادية؛ موطنها ومرابع لهوها وصباها، على ما فى الصحراء من جدب وقحط؛ فالحنين إلى الوطن والأهل طغى على رغد العيش فى حياتها

---

* ويقول عبده بدوى: " كما أن هناك من يرمز للحبيب بالوطن، وبنجد على وجه الخصوص" (قضية التعبير عن الحب عند الشاعرات، مجلة عالم الفكر : ٥٦٨، الكويت).

الجديدة.

وقالت أخرى من القبيلة نفسها وهى "وجيهة بنـــت أوس الطيبـــة" : شاعرات العرب، ص ٨٧).

وعاذلـــةٍ هبّـــتْ بليـــل تلومنـــــى ... على الشوق لم تمْحُ الصبابةَ من قلبـى

فما لى إن أحببت أرض عشـيرتى ... وأبغضت طرفاءَ القصيبة من ذنبِ

فلو أن ريحا بلّغت وحى مرســـل ... حفىٌ لناجيتُ الجنوبَ على النقـــبِ

فقلت لـــــها أدى إليـــهم رســـالتى ... ولاتخلطيها طال سعدك بـــــالتُرب

فإنى إذا هبـــــت شـــمالاً ســـألتها ... هل ازداد صداح النميرة من قـوب

وقالت ليلى بنت لكيز من بنى ربيعة الملقبة (بالعفيفة)، عندما وقعـت أسيرة لدى ملك الفرس أبياتها المشهورة:(شاعرات العـــرب، ص ص٣٢-٣٣).

ليـت للـبرّاق عينـــاً فـــترى ... مـــا ألاقـــى مـــن بـــلاء وعنـــا

يـــا كليبـــا وعقيـــلاً إخوتـــى ... يـــا جنيـــداً أســـعدونى بالبكـــا

عُذبـــت أختكـــمُ يـــا ويلكـــم ... بعـــذاب النكـــر صبحـــا ومســـا

غلّلونـــى قيدونـــى ضربـــوا ... ملمـــس العفـــة منـــى بالعصـــا

يكـــذب الأعجـــم مـــا يقربنـــى ... ومعى بعـــض حشاشـــات الحيـــا

فأنـــا كارهـــــة بغيكـــم ... ويقيـــن المـــوت شـــىء يرتجـــى

فاصطبـــار أو عـــزاء حســـن ... كل نصـــر بعـــد ضـــر يرتجـــى

أصبحـــت ليلـــى تُغَـــلُّ كفـــها ... مثـــل تغليـــل الملـــوك العظمـــا

وتقيـــدٌ وتكبـــل جـــهرة ... وتطـــالب بقبيحـــات الخنـــا

قــل لعدنـــان هديتــم شـــــمروا لبنـــى مبغــوض تشــمير الوفـــا
يا بنى تغلب ســـيروا وانصـــروا وذروا الغلـــة عنكـــم والكـــرى
واحذروا العـــار علـــى أعقـــابكم وعليكـــم مـــا بقيتـــم فـــى الدُنـــا

وقد وقعت فى هذا الأسر عندما نزل أبوها فى ناحية من بلاد الفرس ومعه ابنته، وكانت من أجمل نساء زمانها، فأوصل خبرها إلى ملك الفـــرس وقتئذ أحد حاشيته، فقال له الملك: ما عسى أن تبلغ منها والبدويـــة تفضـــل الموت على أن يغشاها أعجمى؟ فقال : ترغبها بالمال ومحاســـن المطـــاعم والمشارب والملابس. وأرسل الملك فاغتصبها من أبيها، ثم عـــرض عليـــها جميع المشتهيات والمرغبات، وخوفها بجميع العقوبات، وعاملها بـــالتعذيب ليرى وجهها فأبت، وخيرته بين أن يقتلها أو يعيدها لأبيها ولما يئـــس منـــها أسكنها فى موضع وأجرى عليها الرزق، واكتفى برؤية قوامها تحت ملابسها فى بعض الأحيان. وكان لليلى المذكورة ابن عم من بنى بكر، فارس شـــجاع يقال له البراق فاحتال حتى خلصها.*

ويستوقفنا فى هذا الباب موقف النقاد المحدثين تجاه ما جاء من شـــعر النساء فى الحنين إلى الأوطان. يقول أحدهم :" أما الذى لا حرج فيه علـــى الشواعر، فالحنين إلى مسقط رءوسهن فهن يحنن كما يحن الرجـــال.. وقـــد تراها الشاعرة فرصة تنفس عن نفسها فتتغزل، وتخـــدع الآخريـــن حيـــث توهمهم بأنها تحن إلى دار أو تهيم إلى أثـــر" الأصـــول الفنيـــة، ص٣٠٢) وكذلك يقول أحمد الحوفى : "إن بعض الحنين إلى الوطن غـــزل مســـتور،

* وقد أبقينا على هذه المقطعة كاملة لأنها تنقل أحداث الخبر الذى أوردناه مع الحديث عنها.

وحنين إلى حبيب نازح لا طاقة للمرأة أن تبوح به" (المـــرأة فـــى الشـــعر الجاهلى، ص ص٥١٦-٥٢٣).

قد يكون حقا أن شعر بعض النساء فى موضوع الغربة والحنين إلـــى الأوطان يخفى وراءه شوقاً إلى حبيب لا تستطيع التصريح به، فنجـــد فـــى موضوع الغربة فرصة للتعبير عن عاطفتها فتتغزل عندئذ فى الوطن، كمـــا صنعت (أسماء المرية) التى تزوجها رجل من تهامة، ونقلها إليها، فقالت له : ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها الصبًا، ما رأيتها هاهنـــا؟ فقـــال: يحجزها عنا هذان الجبلان، فقالت:

أيـــا جبلـــى نعمـــان بـــالله خليـــا ... نسيم الصبًا يخلط إلـــىَّ نســـيمُها
فإن الصبا ريح إذا مـــا تنفســـت ... على قلب محزون تجلت همومـــها
أجد بردَها أو تشفِ منى حـــرارة ... على كبد لـــم يبـــقَ إلا صميمـــها
أيا جبلـــى وادى عريـــرةَ التـــى ... نأت عن نوى قوم وحُـــمٌ قدومـــها
ألا خليا مجـــرى الجنـــوب لعلـــه ... يداوى فؤادى من جـــواه نســـيمها
وكيف تداوى الريح شوقا ممـــاطلا ... وعينا طويلا بـــالدموع ســـجومها
وقـــولا لركبـــان تميميـــة غـــدت ... إلى البيت ترجو أن تحط جُرومـــها
بـــأن بأكنـــاف الرغـــام غريبـــة ... مولهـــة ثكلـــى طويـــلا نئيمـــها
مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى ... وتبريـــح شـــوق عاكف ما يريمها

شاعرات العرب، ص٦٢).

هكذا يطغى الشوق والحب على الحنين إلى الأوطان، ويكشفه قولـــها (يداوى فؤادى من جواه نسيمها)، وكذلك إشارتها الصريحة التى لا مواربـــة

فيها فى البيت الأخير، وأنها غارقة فى الحب والهوى، وليس الحنين إلى الوطن إلا ستاراً تستتر به.

إن ما مر بنا من شعر الغزل الذى كانت تبوح فيه المرأة بعاطفتها وشوقها إلى من تحب، وكذلك المواقف التى وردت خلال هذه الدراسة منطوية على إعلانها عن حبها لرجل وهى فى ظل رجل آخر حتى تطلب الطلاق منه ومن قبل يعطيها الرخصة فى التعبير عن هذه العاطفة، إذا كانت فى حدود الحشمة والأدب، فهى ليست لتوارب هذه العاطفة وتغلفها بمعانٍ أخرى وهى الحنين للوطن، فهو ليس بغزل مستور. وفى الفقرة الأخيرة التى وردت فى كتاب (الأصول الفنية) يكون رادفاً لما نذهب إليه، وهو فن مستقل فى شعر المرأة تقوله عندما تشعر بالحنين إلى الوطن، كما هو شعور الرجل فى حنينه للوطن : "إنه الحنين الذى يربط بين الإنسان والحيوان، ويوثق ما بينهما وبين الأوطان، أو هو جلال الوطن تنزع إليه النفوس فلا تتحول عنه، ولا تروم سواه" (الأصول الفنية، ص٣٢٢).

فقد انتهى – كما انتهينا – بقوله بأن الحنين إلى الأوطان يشترك فيه المرأة والرجل، حتى الحيوان؛ وهو كما قال "جلال الوطن تنزع إليه النفوس فلا تتحول عنه، ولا تروم سواه".

المرأة والشعر فى العصرين الإسلامى والأموى:

برزت المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى، وأصبح لبعضهن دور ومكانة فى الحياة الاجتماعية والسياسية، وكن يفحمن الرجال، وذلك لما كان لبعضهن من ثقافة ومعرفة، ورجاحة عقل وسداد فكر، وذلك بسبب الحرية التى منحها الإسلام للمرأة فى إبداء رأيها فى كثير من الأمور؛ ليس فى

أمورها الشخصية فحسب، وإنما فى الأمور العامة كما بينا فى مطلع هـــذا الدراسة، وقد بقيت هذه الحرية قائمة فى زمن الدولة الإسلامية فى عصورها المتقدمة، لكنها بدأت فى التراجع بعد دخول قيم ومفاهيم وأعـــراف غريبـــة ليست من نسيج المجتمع العربى القديم، وليست أيضـــاً مـــن تعـــاليم الديـــن الإسلامى.

أما عن إبداع المرأة فى الشعر وتقريظ النقاد شعرها فـــى العصـــر الإسلامى فقد بدأ بالموقف الذى أعلنه رسول الله (ﷺ) من شعر "الخنســـاء"؛ فقد كان يستنشدها ويعجب بشعرها، وكان رده على عدى بن حـــاتم طيـــئ، عندما ذهب إلى أن امرأ أشعر الناس، بقوله "أما أشعر الناس فالخنساء بنـــت عمرو". وكذلك كان موقف عمر بن الخطاب (ﷺ) عندما سألها عن أفضـــل بيت قالته فى أخيها، فقالت :

وكنت أعير الدمع قبلك من بكـــى فأنت على من مات بعدك شـــاغلة

وهناك أخبار تروى عن النبى (ﷺ) وموقفه مـــن شـــعر النســـاء، كموقفه عندما عرضت قُتَيلة بنت النضر بن الحارث له (ﷺ) وهو يطوف، فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وقد كان قتل أباهـــا، فأنشـــدته: (العمدة، ٥٦/١؛ شاعرات العرب، ص١٣٤).

يا راكبـــاً إن الأثيـــــلَ مظنـــــةً من صبح خامسة، وأنـــت موفَّـــقُ
أبلـــغ بـــه ميتـــاً بـــأن قصيـــدة ما إن تزال بها الركـــائب تخفـــق
منـــى إليـــه، وعـــبرة مســـفوحة جادت لمائحـــها وأخـــرى تخفـــق
فليســـمعنّ النضـــر إن ناديتـــــه أم كيف يســـمع ميـــت لا ينطـــق

ظلت سيوف بنـــى أبيـــه تنوشـــه ... لله أرحـــــام هنـــــاك تُشـــــقق
قسراً يقـــاد إلـــى المنيـــة متعبـــا ... رسف المقيّد وهو عـــــانٍ موثَـــق
أمحمد هـــا أنـــت نجـــل نجيبـــة ... من قومها والفحل فحـــل مُعـــرِق
ما كان ضرك لو مننت، وربمـــــا ... منَّ الفتى وهو المغيـــظ المحنـــق
والنضر أقرب من قتلـــت وســـيلة ... وأحقـــهم إن كـــان عتـــق يعتـــق

فقال النبى (ﷺ) لما بلغه شعرها : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته. ويقـــال إنـــها أسلمت وحسن إسلامها ومدحت النبى(ﷺ) بقصيدة منها:

الواهب الألف لا يبغى بها بـــــدلاً ... إلا الإله ومعروفاً بمـــا اصطنعـــا

وكان عمر يعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحد مـــائتى درهم، حتى قبض. أما عن موقف الشعراء من شعر الخنساء فقد جاء علـــى لسان جرير الشاعر الأموى حينما سئل : من أشعر الناس؟ قال : أنـــا لـــولا الخنساء، قيل لم فضلتها؟ قال : لقولها:

إن الزمان وما يفنى لـــــه عجـــب ... أبقى لنا ذنباً واســـتؤصل الـــراسُ
إن الجديدين فى طول اختلافـــهما ... لا يفسدان ولكـــن يفســـد النـــاس

ويروى أن أبا بكر (ﷺ) كان يسير فى أحد طرق المدينة فسمع امرأة تطحن وتترنم :

وعشقته من قبل قطـــــع تمـــائمى ... متمايساً مثـــل القضيـــب النـــاعمِ
وكأن نور البـــــدر سُـــنّة وجهـــه ... يُنمى ويصعد فى ذؤابـــــة هاشـــمَ
وأنا التى لعـــب الغـــرام بقلبـــها ... فبكت بحب محمـــد بـــن القاســـم

فما كان منه إلا أن طرق الباب، وحين خرجت إليه سألها: ويلك أحرة أم مملوكة؟ قالت مملوكة يا خليفة رسول الله. فتركها وسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب. (أخبار النساء لابن الجوزية، ص١١٥).

وتتوالى النساء الشاعرات فى العصرين الإسلامى والأموى؛ فمنهن هند بنت عتبة بن ربيعة، وصفية بنت مسافر بن أبى عمر بن أمية، وهند بنت أثابة بن عباد بن عبد المطلب، وقتيلة بنت الحارث، وصفية بنت المطلب، ونعم امرأة شماس بن عثمان، وأروى بنت الحارث (انظر: شاعرات العرب وسيرة ابن هشام).

ونختار منهن ليلى الأخيلية، وقد استشهد القدامى بشعرها؛ فذكر ابن طباطبا فى باب التشبيه فى قولها عيار العشر، ابن طباطبا، ص ٥٨.

قوم رباط الخيل وسط بيوتهم وآسفة زرق نجلن نجوما

وذلك فى تشبيه الشىء بالشىء صورة ولونا وحركة وهيئة، ووضع هذا الشاهد بجانب شواهد أخرى لفحول الشعراء، كامرئ القيس وغيره من الشعراء المتقدمين. مدحت معاوية بن أبى سفيان، والحجاج بن يوسف الثقفى؛ فقد قيل إن معاوية كان سائراً إذ رأى راكباً، فقال لبعض شرطه: ائتنى به وإياك أن تروعه، فأتاه، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال : إياه أردت. فلما دنا الراكب حدر لثامه، فإذا ليلى الأخيلية، فأنشأت تقول : (شاعرات العرب، ص١٤٤؛ زهر الآداب، ١٠٠٢ -١٠٠٣).

معاوىَ لم أكد آتيك تهوِى برحلى نحو ساحتك الركابُ

تجوب الأرض نحوك مـــا تـــأنّى إذا مـــا الأكـــم قنّعـــها الســـراب
وكنتَ المرتجـــى وبك اســـتعاذت لِتُنعشـــها إذا بخـــل السحـــاب

فقال لها معاوية: ما حاجتك؟ قالت : ليس يطلب إلى مثلك حاجة فتخير أنت. فأعطاها خمسين من الإبل، ثم سألها: أخبريني عن مضر، قـــالت : فـــاخر بمضر، وحارب بقيس، وكاثر بتميم، وناظر بأسد.

هذه المرأة نالت إعجاب الخليفة الأموى بجزالة شعرها وقوة معانيها، وكذلك برجاحة عقلها، وسرعة بديهتها.

وقالت أيضاً فى مدح الحجاج بن يوسف الثقفى عندما قدمـــت عليـــه وعنده وجوه أصحابه واشرافهم، "فبينما هو جالس معهم إذ أقبلـــت جاريـــة فأشار إليها وأشارت إليه، فلم تلبث أن جاءت جاريـــة مـــن أجمـــل النســـاء وأكملهن، وأتمهن خلقا، وأحسنهن محاورة، فلما دنت منه سلمت ثم قـــالت : أتأذن أيها الأمير، قال: نعم، فأنشدت" : (شـــاعرات العـــرب ١٤٧،؛ زهـــر الآداب، ص ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٦).

أحجـــاجُ إن الله أعطـــاك غايـــة يقصّـــر عنـــها مـــن أراد مداهـــا
أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـــــ منايـــا بكـــف الله حيـــث يراهـــا
إذا ورد الحجاج أرضا مريضـــة تتبـــع أقصـــى دائـــها فشـــفاها
شفاها من الداء العياء الـــذى بـــها غـــلام إذا هـــز القنـــاةَ ثناهـــا
إذا سمع الحجاج صـــوت كتيبـــة أعد لـــها قبـــل الـــنزول قِراهـــا
أعد لهـــا مصـــقولة فارســـية بأيـــدى رجـــال يحلبون صَرَاها[1]

---

[1] مصقولة فارسية : أرادت به السيف، وأصل الصرّى ــ بفتح الصاد ــ بقية اللبن فى الضرع، وأرادت به أنهم يأتون بآخر ما يمكن من الضرب بها.

حتى أتت على آخرها، فقال الحجاج لمن عنده : أتعرفون من هـذه ؟ قالوا : ما نعرفها، ولكن ما رأينا امرأة أطلق لسانا منها، ولا أجمل وجـــها، ولا أحسن لفظاً، فمن هى أصلح الله الأمير؟ قال : هى ليل الأخيلية صاحبـــة توبة بن الحمير التى يقول فيها:

ولو أنّ ليلـــي الأخيليـــة ســـلمت عليَّ ودونـــى جنـــدل وصفـــائحُ
لسلمتُ تســـليم البشاشـــة أو زقـــا إليها صدىً من جانب القبر صـــائح

فهذه نماذج من شعر ليلى فى مديح هذه الطبقة مـــن الرجـــال فـــى عصرها؛ وقد كانت تحاورهم كذلك وتجادلهم دون فحش أو بـــذاءة. ولشـــدة إعجاب الحجاج بشعرها قال لصاحب له: اذهب بها فاقطع لسانها، فدعا لـــها بالحجام ليقطع لسانها، فقالت له : ويحك ! إنما قال الأمـــير اقطـــع لســـانى بالعطاء، فارجع إليه فاسأله، فسأله، فاستشاط غيظاً، وهم بقطع لسانه، ثم أمر بها فأدخلت، فقالت : أيها الأمير كاد أن يقطع مقولتى. فأتبعته ببيتيـــن فـــى مدحه لا يقلان فى قوة التعبير وجمال المعنى وســـرعة البديهـــة : (زهـــر الآداب، ص ١٠٠٩؛ الأغانى ١١/ ٢٣٢؛ شاعرات العرب، ص١٤٩).

حجاجُ أنت الذى ما فوقـــه أحـــد إلا الخليفـــة والمســـتغفر الصمـــدُ
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحـــت وأنت للناس نور فى الدجا يَقِـــدُ

وفى رواية أخرى قال : " امرأة بالباب تهدر كما يهدر البعير النـــاد. قال: أدخلها. فلما دخلت قال لها: ما أتانى بك يا ليلى؟ قالت " إخلاف النجوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، فكنت بها بعد الله الـــرد، قـــال: أخـــبرينى عـــن

الأرض. فقالت : الأرض مقشعرة، والفجاج مغبرة، وأصابتنا سنون مجحفة مظلمة، لم تدع لنا ربعاً، ولا عاطفة، أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأفسدت الأموال" [1] (أشعار النساء، ص ص ٧١-٧٣).

ففى ردها على الحجاج ما يدل على قوة التعبير، وحضور الذهن، وغزارة اللغة، فلم يرهبها هذا المجلس الذى ضم الأمراء والكبار ولم يُثنها عن التعبير عما تسعى إليه. وقد منحتها تجارب الحياة ومخالطة الناس هذه الجرأة والشجاعة الأدبية. ويقال إنها دخلت بين "النابغة الجعدى"، و" سوار بن أوفى" فى مناظرة شعرية بينهما، فمالت إلى جانب سوار، فهجاها الجعدى بألفاظ قبيحة، فكان ردها عليه بشعر يناسبه فى ألفاظه.[2]

وقالت فى مدح آل مطرف : (شاعرات العربية، ص١٥١).

يا أيها السَّدمُ المُلَوّى رأسَه ... ليقود من أهل الحجاز بريما
أتريد عمرو بن الخليع ودونه ... كعب إذاً لوجدته مرءوما
إن الخليعَ ورهطه فى عامر ... كالقلب أُلبسَ جؤجؤا وحزيما
لا تغزون الدهر آل مطرّف ... لا ظالما أبدا ولا مظلوما
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم ... وأسنة زرق تخال نجوما
لن تستطيع بأن تحول عزهم ... حتى تحول ذا الهضابِ يسوما
ومخرّق عنه القميص تخاله ... وسط البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رُفع اللواء رأيته ... تحت اللواء على الخميس زعيما

---

[1] الناد : الشارد. أخلاف النجوم : التعبير عن قلة المطر. كلب البرد : شدته

[2] الأبيات مع الخبر ورددت فى كتاب الأغانى، ج٨،ص٣٠٥، وفى اشعار النساء،ص١٥٠.

وهناك فتاة لم تتجاوز عشر سنوات من عمرها قبض الحجاج على أبيها ورام قتله، أنشدت بعض الأبيات عندما حضرت مع والدها مع أربع وعشرين امرأة من نسائه قالت فيها: (شاعرات العرب، ص١٩٣).

أحجاجُ لم تشهد مقام بناته ... وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج لم تقتل به إن قتلته ... ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه ... علينا فمهلا لا تزدنا تضعضعا
أحجاج إما أن تجود بنعمة ... علينا وإما أن تُقَتِّلنا معا

وقد استطاعت هذه الطفلة ببلاغة ألفاظها، وبيان معانيها، أن تعبر عن حرقة قلبها بفقدان أبيها، على نحو رق له قلب الحجاج حتى بكى، وأمر أن يفك أسر أبيها، وعفا عنه، وأحسن صلته.

وكذلك فى المديح ما يروى عن ابنة لبيد عندما امتنع لبيد عن قول الشعر بعد إسلامه، وعندما كان فى جاهليته كان له جفنتان يغدو بهما ويروح فى كل يوم على مجلس قومه فيطعمهم، وكان قد آلى أن لا تُهبأ صَبَاً إلا أطعم، فهبت الصَّبا يوماً والوليد بن عقبة على الكوفة، فصعد الوليد المنبر، فخطب الناس، ثم قال: إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية أن لا تهب صبا إلا أطعم، وهذا يوم من أيامه، وقد هبت صباً فأعينوه، وأنا أول من يفعل. ثم نزل عن المنبر فأرسل بمائة بكرة، وكتب إليه بأبيات قالها:

أرى الجزّار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبى عقيلِ
أشم الأنف أصيد عامرى ... طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بحلفتيه ... على العلات والمال القليل

بنحـــر الكـــوم إذْ سُـــجيتْ عليـــه ذُيول صبَـــا تجـــاوب بـــالأصيل

فلما بلغت أبياته لبيداً قال لابنته: أجيبيه، فلعمرى لقد عشتُ برهةً وما أعيا بجواب شاعر. فقالت ابنته: (وردت هذه الأبيات فى شاعرات العـــرب، ص٨٨)؛ (الأغانى،١٥/٢٩٩)

إذا هبـــت ريـــاحُ أبـــى عقيـــل دعونـــا عنـــد هبتـــها الوليـــــدا
أشـــمَّ الأنـــف أرْوَعَ عبشـــــميّا أعـــان علـــى مروءتـــه لبيـــــدا
بأمثـــال الـــهضاب كـــأن ركبـــا عليـــها مـــن بنـــى جـــامٍ قعـــودا
أبـــا وهـــب جـــزاك الله خـــيرا نحرناهـــا فأطعمنـــــا الـــثريدا
فعُـــد إنَّ الكريـــم لـــــه معـــــاد وظنّـــى لا أبـــا لـــك أن تعـــودا

فقال لها لبيد: قد أحسنت لولا أنك استطعمته، فقالت: إن الملـــوك لا يستحيا من مسألتهم، فقال: وأنت يا بنية فى هذه أشعر.

وتتسع الحياة فى المجتمع العربى فتبيح للمرأة حرية التعبـــير عـــن مشاعرها، حتى وإن كانت تجالس صفوة الرجال وأمراءهم، ومن ذلك ما دار بين معاوية بن أبى سفيان وليلى الأخيلية، وقد سألها عن (توبـــة الحمـــيرى) الذى كان يهواها، ويقول الشعر فيها، فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياهـــا فزوجها فى بنى الأدلع.

قال معاوية: ويحك ليلى! أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت: يا أمـير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقاً، والناس شجرة بغى يحسدون أهل النعم حيث كانوا وعلى من كانت، ولقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديـــد

اللسان، شجا للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وهو - يا أمير المؤمنين - كما قلت له. قال: وما قلت له؟ قالت: قلت ولم أتعد الحق وعلمي فيه: (الأغاني، ١١/٢٢٢ - ٢٢٤).

بعيدُ الثرى لا يبلغ القوم قعره ... ألدُ مُلدٍ يغلب الحق باطلهْ
إذا حلَّ ركب في ذراه وظله ... ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهم بنصل السيف من كل فادح ... يخافونه حتى تموت خصائله

فقال لها معاوية: ويحك يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً، فقالت في ساعتها:

معاذ إلهي كان والله سيداً ... جواداً على العلات جَمّاً نوافله

فقال لها معاوية: ويحك ليلى لقد جُزْتِ بتوبة قدره، فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته، وأني لا أبلغ كنه ما هو أهله. فقال معاوية: من أي الرجال كان؟ قالت:

أتته المنايا حين تم تمامه ... وأقصر عنه كل قرن يطاوله

وكذلك كان حالها عندما دخلت على الحجاج يوما فقال لأصحابه: ألا أخجلتها لكم؟ قالوا: بلى، قال: ليلى! قالت: لبيك أيها الأمير، قال: أكنت تحبين توبة بن الحمير؟ قالت: نعم، أيها الأمير، وأنت لو رأيته لأحببته (أشعار النساء، ص٦٣).

إن الهدف في نقل هذا التفصيل بين ليلى الأخيلية وكل من معاوية والحجاج، هو أن نكشف عن سماحة المجتمع العربي الإسلامي في تلك

المراحل المبكرة حين كان يسمح للمرأة بالتعبير عن عواطفها دون مواربة أو خجل، إن كان لا مساس فى ذلك بدين أو خلق.

وللمرأة الحرية فى التعبير عن رأيها، ليس فى مجال الحب، أو فى علاقتها بالرجل فحسب، وإنما فى أمور عدة، يتقبلها المجتمع أيما قبول؛ فقد هجت الأخطل (الشاعر المشهور) امرأة يقال لها الدلماء، فأتى الأخطل أباها، فقال له: يا أبا الدلماء، قد عرفت ما بيننا من الود، وإن الدلماء هجتنى، فاكفنى أمرها. فضحك أبوها، وكان ذلك ما أعجبه، وقال: هى امرأة مالكة أمرها، وما لى عليها سلطان [1].

وقد قالت ليلى شعر الهجاء رداً على النابغة الجعدى الذى قال فيها قولاً مقذعاً؛ فقد ردت عليه بأشد منه لكى لا تنكسر أمامه، وحطت من قدره، وقدرة قبيلته، فاستعدت قبيلة جعد أمير المدينة فبلغها ذلك فزادت فى القول (أشعر النساء، ص ص ٣٠ - ٣١).

أنابغ إن تنبغ بلؤمك لا تجدْ للؤمك إلا وسط جعدة مجْعلا

ثم زادت عليه:

أحقا بما أنبيت أن عشيرتى بشوران يزجون المطىَّ المنعَّلا

وقد نكثر من إيراد هذه المواقف مع شواهدها الشعرية، وهدفنا هو التدليل على المناحى المختلفة التى عبرت عنها المرأة فى تلك العصور

---

[1] فقال الأخطل:

ألا أبلغ أبا الدلماء عنى بأن سنان شاعركم قصيرْ
فإن يطعن فليس بذى غناء وإن يطعن فمطعنه يسير
متى ما ألقه ومعى سلاحى يخر على قفاه فلا يحير

المتقدمة بشعرها. وليس هذا فحسب، بل تجدر الإشارة إلى جزالة الألفـــاظ، وعمق المعانى، وجمال الصياغة فيما كان يستلزمه فـــن النظـــم فـــى ذلـــك العصر. ومن ذلك الأبيات التى جاءت على لسان " فريعة بنت همام الزلفـــاء "، تعلن فيها عن رغبتها فى شرب الخمرة، لعلها تنسيها الرجل الذى تعلقـــت به (شاعرات العرب، ص١٦٧):

يا ليتَ شعرى عن نفسى أزاهقـــهُ ... منى ولم أقض ما فيها من الحـــاجِ
ألا سبيلَ إلـــى خمـــر فأشـــربَها ... أمْ لا سبيل إلى نصر بن حجَّـــاج
إلى فتى ماجدِ الأخلاق ذى كـــرم ... سهبِ المُحَيَّا كريمِ غـــير ملجـــاجِ
تَنْميه أعراقُ صدق حيث تنســـبُه ... تَضىء سُنَّتُه فى الحالكِ الدَّاجـــى
نعمَ الفتى فى سواد الليل نصرتُـــه ... ليـــائسٍ أو لملـــهوفٍ ومحتـــاجِ
يا منيـــة لـــم أرُمْ فيـــها بضـــائرةٍ ... والناس من صادق منها ومن راجـــى

وبعد ذلك خافت حين علمت أن عمر بن الخطاب(*) اطلـــع علـــى أمرها، فأرسلت إليه:

قل للإمام الذى تُخشـــى بـــوادرهُ ... ما لى وللخمر أو نصرِ بنِ حجَّـــاجِ
لا تجعل الظـــنَّ حقَـــا أو تيقنَـــهُ ... إنَّ السبيل سبيل الخائفِ الراجـــى
إنَّ الهوى زمَّـــم التقـــوى وقيَّـــدهُ ... حتَّـــى أُقـــرَّ بإلجـــام وإســـراجِ

مشاركة المرأة العربية فى الحياة السياسية:

ظهر إسهام المرأة العربية فى الحياة السياسية واضحاً جلياً فى نتاجها الشعرى فى عصر بنى أمية. وإن أبرز هذه المشاركات كان لها فـــى فـــرق

الشيعة والخوارج. وطبيعى أن نلمس فى هذا النتاج خلوه من الصور الفنية وعمق الخيال، لطبيعة هذا الفن الذى ينشد إثارة الحمية والحماسة؛ وهو لهذا يأتى مباشراً فى معانيه. وقد تطول قائمة النساء اللواتى نظمن فى هذا المجال، ونكتفى هنا باستعراض بعض ما ورد من أشعارهن، ليكون شاهدا على هذه المشاركة، ومنهن " أم سنان بنت جشمة "، وكانت من أنصار على (كرم الله وجهه). وفدت على معاوية تشكو مروان بن الحكم والى المدينة، فقال معاوية: كيف قولك: (شاعرات العرب، ص١٨٣).

عَزُبَ الرقاد فمقلتى لا ترقدُ ... والليل يصدر بالهموم ويوردُ
يا آل مُذْحِج لا مُقَامَ فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصدُ
هذا علىٌّ كالهلال تَخُفُّه ... وسط السماء من الكواكب أسعدُ
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يَهْدِكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شَهَرَ الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه ما يفقدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون خلفاً. وهى القائلة:

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هادياً مهديّا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت ... فوق الغصون حمامة قُمريا
قد كنت بعد محمد خلفا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا

وكذلك " سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية "، وهى أيضاً من أنصار على (كرم الله وجهه)؛ وفدت على معاوية فقال لها: أنت القائلة لأبيك يوم صفّين:

شمّر كفعل أبيك يا ابـــن عمـــارة ... يوم الطعـــان وملتقـــى الأقـــرانِ
وانصر عليا والحســـين ورهطـــه ... واقصـــد لـــهند وابنـــها بـــهوانِ
إن الإمـــام أخـــو النبـــى محمـــد ... علـــم الـــهدى ومنـــارة الإيمـــانِ
فَقُدِ الجيوش وســـر أمـــام لوائـــه ... قُدُمـــاً بـــأبيضَ صـــارمٍ وسِـــنانِ

فقالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبتر الذنب، فدع عنك تذكـــار ما قد نسى. قال: هيهات ليس مثل مقام أخيك يُنسى، قالت صدقـــت، وبـــالله أسألك إعفائى مما استعفيته، قال قد فعلت، فما حاجتك ؟ فذكرتها، فقضاهـــا لها.

وقالت : (شاعرات العرب، ص١٨٦).

صلّى الإله على جســـم تضمنـــه ... قبرٌ فأصبح فيـــه العـــدل مدفونـــا
قد حالف الحق لا يبغى بـــه بـــدلا ... فصار بالحق والإيمـــان مقرونـــا

وهناك كذلك خبر " هند بنت يزيد الأنصارية "، وهى مـــن أنصـــار على (كرم الله وجهه) وهى امرأة متميزة بحسن الرأى وجودة البيان. قـــالت ترثى حُجر بن عدى: (شاعرات العرب، ص١٨٧)

ترفّـــعْ أيـــها القمـــــر المنـــــيرُ ... تبصّر هل تـــرى حُجـــرا يســـيرُ
يسيرُ إلى معاويـــــة بـــن حـــربٍ ... ليقتلـــه كمـــا زعـــــم الأمـــــير
تجـــبَّرتِ الجبـــابرُ بعـــد حُجْـــرٍ ... وطاب لـــها الخورنـــق والســـدير
وأصبحـــتِ البـــلاد لـــها مُحـــولا ... كـــأن لـــم يُحيـــها بـــرق مطـــيرُ

ألا يا ليت حُجْـــرا مـــات موتـــا ولم يُنحـــر كمـــا نُحـــر البعـــير
ألا يا حُجرُ حُجـــرَ بنـــى عـــدىّ تلقتـــك الســـــلامة والســـــرور
أخـــافُ عليـــك مـــا أردى عديّـــا وشيخا فـــى دمشـــق لـــه زئـــير
يرى قتـــل الخيـــار عليـــه حقـــا لـــه مـــن شـــر أمتـــه وزيـــــر
فـــإن يـــهلك فكـــل زعيـــم قـــوم من الدنيـــــا إلـــى هُلْـــكٍ يصـــير

إن كلمة (ترقع) أطلقتها هند صرخة مدوية لما واجهه حجر وصحبه عندما أحضروا إلى دمشق، وطلب منهم سب على (كرم الله وجهه)، فقـــالوا جميعاً إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليـــه، ولـــذا تـــم إعدامهم.

ولذا تشير الشاعرة - فى ثنايا هذه المقطوعة - إلى تحول نظام الحكم من رحابته أيام الرسول (ﷺ) والخلافة الراشدية إلى نظـــام كســـروى فـــى إشارتها إلى (الخورنق والسدير)، كما أنها تشير إلى تجبر معاويـــة بكلمـــة (زئير) و(تجبرت، والجبابرة) لكنها تنتهى إلى التسليم بالموت.

فهذه القصيدة لا تندرج تحت دائرة الرثاء، أو النواح، وإنما هى أقوى من ذلك؛ لأن هذه المرأة تخوض بها معترك الخلاف السياسى الدائر فى تلـك الحقبة.

المرأة والشعر فى العصر العباسى:

وعندما نصل إلى العصر العباسى تبرز مظـــاهر الرقـــى الفكـــرى والعقلى التى ألقت بظلالها المشرقة على المجتمع، وتبرز بجانب ذلك مظاهر الرفاه والنعيم، وقد نال المجتمع قسطاً من الحرية الفكرية فى معالجة كثـــير

من قضايا الحياة ومنها القضايا العقائدية. وما يعنينا فى هذا المقام هو المـرأة ودورها فى المجتمع؛ فقد أصبح لبعض النساء تأثير فى السلطة مـن داخـل البلاط العباسى، وإن كان أغلبهن من الجوارى اللواتى سُدْن المجتمع فى ذلك الوقت، حيث كن زوجات الخلفاء وأمهاتهم، كالخيزران أم الـهادى وبـدران زوج المأمون. ولكن العصر لم يخل من حضور المرأة الحرة، كما مر بنـا من حديث عن زبيدة زوج الرشيد فى مجال السياسة، وتأثيرها فى زوجـها الرشيد، وعن علية بنت المهدى ونشاطها الثقافى والفنى. أما بالنسبة للحيـاة الفكرية ودور المرأة فى الشعر فيبرز عدد منهن وإن لم تسـتطع أسـماؤهن ضمن الأحداث الأدبية والتاريخية. منهن " ليلى بنت طريف الشيبانية "؛ وهى أخت الوليد بن طريف الذى خرج ثائراً على الرشيد وأدى خروجه إلى قتلـه فنذرت نفسها لرثائه. ومن قولها: (شاعرات العرب، ص١٥٩)

بتَـل نبـاتى رسـم قـبر كأنـه ... على جبل فـوق الجبـال منيـفِ
تضمـن جـودا حاتميـا ونـائلا ... وسـورة مقـدام ورأى حصيـف

وعندما نتوغل فى العصر العباسى تبرز لنا مظاهر التطور والتغـير فى المجتمع بأوسع معانيها. أما عن المرأة ودورها فى الشعر العباسى، فأول ما يلفت الانتباه فى هذا الجانب وجود الجوارى فى صميم الحياة الاجتماعيـة والأدبية [1]، وغياب المرأة عن ميدان الحياة العامة ومشاركتها فـى الحيـاة

---

(١) نتجاوز الحديث عن الجوارى لوجود الدراسة الخاصة بنا (الجوارى والشعر فى العصر العباسى) وقـد مر ذكر علية بنت المهدى فى موضوع الغناء، ونذكر هنا شعرا لها جاء فى (نزهة الجلسـاء فـى أشـعار النساء للسيوطى)، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ص ص ٦٠ - ٦١ :

الأدبية خاصة، عدا القليل منهن، اللواتى نذكر منهن " خديجة العباسية " بنت الخليفة المأمون. قيل عنها: كانت أديبة، شاعرة، ظريفة، ومن شعرها:

بالله قولوا لـــى لمــن ذا الرشــا ... المثقل الــردف الــهضيم الحشــا
أظرف ما كـــان إذا مــا صحــا ... وأملــح النــاس إذا مــا انتشـــى
وقــد بنــى بــرج حمــام لـــه ... أرســل فيــه طــائرا مرعشـــا
يــا ليتنـــى كنــت حمامــا لـــه ... أو باشــقا يفعــل بــى مــا يشــا
لــو لبس "القــوهى" مــن رقــة ... أوجعــه القــوهى أو خــدشــا[٢]

(نزهة الجلساء، ص٤٢)

وعائشة بنت الخليفة المعتصم محمد بن هــارون الرشــيد، ذكــرت المصادر أنها كانت أديبة شاعرة، وتبدو جريئة مع عيسى بن القاســم، فقــد كتب:

كتبــت إليــك ولـــم أحتشــمْ ... وشــوق المحبيـــن لا ينكتــمْ
صبوحى فى السبت مــن عــادتى ... على رغم أنف الــذى قــد رغــم
وعيشــى يتــم بمــن تعلميـــ ... ـــن، وإن غاب عن ناظرى لم يتم
فمنـــى علـــى بتوجيهـــها ... بتربـــة ســـيدك المعتصـــم

كتمــت اســم الحبيــب عـــن العبـــاد ... ورددت الصبابــة فـــى فــؤادى
فـــوا شـــوقى إلـــى نـــاد خلـــى ... لعلـــى باســم مــن أهــوى أنــادى

وتقول أيضا :

صحائفنـــــا إشـــــارتنا ... وأكـــثر رســـلنا الحـــدق
لأن الكتـــب قـــد تقـــرا ... وليـــس برســـلنا نثـــق

وقد كان لها شقيقتان شاعرتان هما لبابة بنت المهدى، والعباســة بنــت المــهدى (ص ص٦٠،٦٧). وقــد اشتهرت علية بحب غلام لها اسمه " رشا " ولها فيه شعر رقيق .

٢- القوهى: ثياب بيض لينة، نسبة إلى قوهستان.

فما كان منها إلا أن ردت عليه وكتبت:

قـــرأت كتـــابك فيمـــا سألـــــــــ ـــت، وما أنت عنـــــدى بالمتـــهم
أتتـــك المليحـــة فـــــــى حلـــــة من النور تجلـــــى ســـواد الظلـــم
فخذها هنيئـــــا كمـــا قـــد ســـألت ولا شك شكوى امرىء قـــد ظلـــم
ولا تحبســـنها لوقـــت المبيـــــــ ـــــت كما يفعل الرجل المغتنم

(نزهة الجلساء، ص٥٣).

هؤلاء هن " الأميرات" حيث لم يكن وحدهن من النساء فى العصـــر العباسى ينظمن الشعر، ويُجدن فى التعبير عن لغة الحب، ومن هؤلاء أيضـــاً "الشريفة أم العزيز" التى تقول:

لحـــاظكم تجرحنـــا فـــى الحشـــا ولحظنا يجرحكـــم فـــى الخـــدود
جرح بجـــرح فاجعـــلوا ذا بـــذا فما الذى أوجـــب جـــرح الصدود

(نزهة الجلساء،ص٢٢)

وهناك أيضاً " عاتكة المخزومية" التى قالت فيمن اسمه حسان:

شـــتان بيـــن مدبـــر ومدمـــــــر صيد الليوث حصـــــائد الغـــزلان
روعته من بعـــد دهـــر راعنـــى وسقيته مـــا كـــان قبـــل ســـقانى
فلقـــد ســـهرت ليالـــيا ولياليـــا حتـــى رأيتـــك يا هـــلال زمانى

(نزهة الجلساء، ص٥٨)

ومنهن " أم العلاء الحجازية " التى لها شعر تظـــهر فيـــه اللوعـــة والشوق، كقولها:

افهمْ مطارح أحوالى وما حكمـــت ... به الشـــواهد واعذرنـــى ولا تَلُـــمِ
ولا تَكِلنـــى إلـــى عـــذر أبينـــه ... شر المعاذير مـــا يحتـــاج للكلـــم
وكل ما جئته من ذلـــــة فبـــما ... أصبحـــت فى ثقة من ذلك الكـــرم[1]

وشهدة بنت الأبرى قيل عنها إنها فخر النساء، ومسندة العراق، ومن شعرها الذى قال عنه الصلاح الصفدى: أنا أستبعد أن يكـــون هـــذا الشـــعر لشهدة:

سكنوا العتيق وحركوا بغرامـــهم ... قلبـــا يكـــاد يطـــير بالخفقـــانِ
حتام تفرط فى الصبابة أضلعـــى ... وتلـــج فـــى عبراتـــها أجفـــانى
وإذا تبســـم ثغـــر بـــرق منجـــد ... أغرى دمـــوع العيـــن بالـــهملان
يا حادى البكرات هل لك روحـــة ... بالعمر عند مســـارح الرعيـــان؟
فتذكر الناسين عـــهدى بـــالحمى ... فجديـــده أبـــلاه مـــن أبلانـــى
وذكرت نيران الوداع، فأرســـلت ... عينـــى إلى أمـــد البكـــاء عنانى

(نزهة الجلساء، ص٤٦).

---

(١) كانت من أهل المائة الخامسة، ومن شعرها:

كـــل مـــا يصـــدر عنكـــم حســـنٌ ... وبعلياكـــم تحلّـــى الزمـــنْ
تعطـــف العيـــن علـــى منظركـــم ... وبذكراكـــم تلـــذ الأذن
مـــن يعـــش دونكـــم فـــى عمـــره ... فـــهو فـــى نيـــل الأمـــانى بغبـــن

وقد عشقها رجل أشيب فقالت فيه:

يـــا صبـــح لا تبـــد إلـــى جنحـــى ... فـــالليل لا يبقـــى مـــع الصبـــح
الشـــيب لا يخـــدع فيـــه الصبـــا ... بحيلـــة فاســـتمع إلـــى نصحـــى
فـــلا تكـــن أجـــهل مـــن فـــى الـــورى ... تبيـــت فـــى الجـــهل كمـــا تضحـــى

وصفية بنت عبد الرحمن أجازت ذلك البيت الذى يقول:

إذا ما خلت من أرض كد أحبتى فلا سال واديها ولا اخضر عودُها

فقالت :

ولا نطقت فى الربع بعدك غـــادة يلذ لســـمعى شـــدوها ونشـــيدُها

وإنى لأبكى الرَّبعَ مذ بـــان أهلـــه وأنشد ليلات مضت مـــن يعيدهـــا

المرأة الأندلسية والشعر:

لم تكن المرأة العباسية وحدها أجادت فن القول وعبرت عن عاطفـــة الحب فى شعرها، فإننا نلاحظ أيضاً أن المرأة الأندلسية كان لها دور فى هذا المجال، وفى الحياة الأدبية عامة؛ فقد كانت أكثر جرأة لتملكها فســـحة مـــن الحرية تمكنها من فرض وجودها فى المجتمع على نحو لم تمتلكـــه أختـــها المشرقية، التى طغت الجوارى على حضورها فى الحياة العامة. وقد أحصى بعضهم الشاعرات الأندلسيات فقيل إنهن يزدن على ستين ألف شـــاعرة. وإذا كان هذا العدد يدنو من المبالغة فإنه يدل دلالة واضحة على نشـــاط المـــرأة الأندلسية فى الحياة الأدبية. وقد يكون هذا النشاط نتيجة لتقدم المرأة فى مجال العمل فى ذلك المجتمع؛ فقد تولت بعضهن المناصب القيادية، مثـــل (لبنـــى) التى كانت كاتبة عند الخليفة الحكم بـــن عبـــد الرحمـــن، وكـــانت شـــاعرة وعروضية وخطاطة. وقد اشتغل بعضهن فى التعليم، على نحو ما نعرف من (قسمونة اليهودية)، التى اهتمت فى شعرها أكثر ما اهتمت بمسألة تأخرهـــا فى الزواج؛ فقد قالت مثلا حين نظرت فى المرآة:

أيا روضة قد حان منـــها قطافـــها ولست أرى جان يمـــد لـــها يـــدا
فوا أسفى يمضى الشباب مضيعـــا ويبقى الذى ما إن أســـميه مفـــردا

ويقال إن أباها حين سمع هذا القول زوجها. ومن شعرها فـــى هـــذا المجال:

يا ظبية ترعـــى بـــروض دائمـــا إنى حكيتك فى التوحش والحَـــوَرْ
أمسى كلانا مفردا عـــن صـــاحب فعتابنا أبـــدا علـــى حكـــم القـــدر

وقد ورد شعر بعضهن رد فعل لشعر قيل، مثلما كـــان مـــن أمـــر "حفصة الغرناطية"؛ فقد باتت وأبو جعفر عبد الملك بن سعيد فـــى بســـتان، وكان يهواها فقال:

رعى الله ليلاً لـــم يـــرح بمذمـــم عشـــية وارانـــا بجـــود مؤمـــلِ
وقد خفقت من نحو نجـــد أريجـــة إذا نفحت هبـــت برَيَّـــا القرنفـــلِ
وغرد قمرى على الـــدوح، وانثنى قضيب من الريحـــان من فوق جدول

فقالت :

لعمرك ما سِرُّ الرياض بوصلنـــا ولكنه أبدى لنـــا الغـــل والحســـدْ
ولا صفق النهر ارتياحـــا لقربنـــا ولا صدح القمرى إلا بمـــا وجـــد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهلـــه فما هو فى كل المواطن بالرشـــد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجـــومه لأمر سوى كيـــما يكون لنا رصد

(نزهة الجلساء، ص٣٣)

وأول من تلقانا (ولادة بنت المستكفى) التى فرضت وجودها على دارس الأدب فى الأندلس، لكنها لم تكن وحدها المتميزة فى نشاطها، وجرأتها؛ فقد أوردت المصادر أسماء كثير منهن، إضافة إلى ما مر بنا من أسماء؛ ومنهن "حفصة بنت الحاج الركونية"؛ وهى من أشراف غرناطة عاصمة بنى الأحمر.

ومما يميز شعرهن أنه قد امتزج بالطبيعة حتى غدا هذا الامتزاج خاصة ملازمة لشعرهن، على نحو ما نلمس فى شعر " حمدة الوادى آشية " التى كانت تلقب بخنساء المغرب، وشاعرة الأندلس. تقول:

أباح الدهر إسرارى بوادى ... له فى الحسن أسرار بَوادى
فمن نهر يطوف بكل روض ... ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة إنس ... لها ليلى وقد سلبت فؤادى
لها لحظ ترقده لأمر ... وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد

وإليها ينسب شعر من أجمل ما قيل فى الطبيعة وروعتها. وهناك أكثر من شاعرة تتهافت على المحبوب، وتظهر الذلة أمامه، على غير المعروف فى الشعر العربى. وتجىء فى مقدمة هؤلاء "خديجة المعافرية" التى تعرف بخدوج، وقيل عنها: إحدى المتأدبات المتصوفات المتغزلات المتعففات؛ فهى تقول:

أبقى رضاك بطاعة مقرونة ... عندى بطاعة ربى القدوسِ

فإذا زللت وجدت حلمك ضيقا عن زلتى أبدا لفرط نحوس
ولقد رجوت بأن أعيش كريمة فى ظل طود دائم التعريس
ببقاء عزك - لا عدمت بقاءه - فإذا أنا أصلى بحر شموس
يا سيدى! ما هكذا حكم النهى حق الرئيس الرفق بالمرءوس
فإذا رضيت لى الهوان رضيته وجعلت ثوب الذل خير لبوسى

وبعض هؤلاء الشاعرات كن من الطبقة العليا فى المجتمع، وكانت صلاتهن بالمسئولين فى الدولة على مستوى الوزراء، منهن "نزهون الغرناطية" التى كانت على صلة بالوزير أبى بكر بن سعيد. ويقال إنه كتب لها مرة:

يا من له ألف خل من عاشق وصديق
أراك خليت للناس مد ذاك الطريق

فأجابته:

حللت أبا بكر محلا منعته سواك وهل غير الحبيب له صدرى
وإن كان لى كم من حبيب فإنما يقدم أهل الحق فضل أبى بكر

وتتقدم هؤلاء جميعا - كما مر بنا - ولادة بنت المستكفى بالله التى كان لها أكثر من صلة بالوزراء، والتى صرحت بما لم تجرؤ على مثله النساء؛ فقد كتبت بالذهب على طرازها الأيمن:

أنـــا والله أصلـــح للمعـــالى وأمشـــى مشـــيتى وأتيـــه تيـــها

وكتبت على الطراز الأيسر:

أمكن عاشـــقى مـــن لثـــم خـــدى وأعطـــى قبلتـــى مـــن يشـــتهيها

وكان مما كتبته لابن زيدون فى فترة الموافقة:

ترقب إذا جن الظـــلام زيـــارتى فإنى رأيـــت الليـــل أكتـــم للســـرّ

وبى منك ما لو كان بالشمـــس لم تلُح وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يَسْـــرِ

كما كتبت إليه: (نزهة الجلساء، ص٤٣)

ألا هل لنا من بعد هذا التفرقِ سبيل فيشكو كل صب بما لقى

يتبين لنا من هذا العرض لنتاج بعض الشاعرات فى المجتمع العباسى والأندلسى أن المرأة فيهما لم تكن أكثر تناولاً لفن الشعر وموضوعاته مـــن المرأة فى العصور السابقة. حقا، إنها قد تكون فى العصور المتقدمـــة أقـــل تناولاً لبعض موضوعات الشعر، كالغزل الفاضح مثلا، وتكون أيضا معـــبرة عن عصرها الذى كان من الطبيعى أن يكون عصـــراً مختلفـــاً فـــى قيمـــه ومفاهيمه واحتياجاته عما آلت إليه الحياة فى المجتمع العباســـى والأندلســـى نتيجة دخول كثير من القيم والمفاهيم الذى حملتها الأقوام من الأمم المختلفـــة التى دخلت الإسلام وتغلغلت فى نسيج المجتمع العربى.

والآن، فإن ما مر بنا من معالجة لشعر النساء فى الأدب العربى أعاد إلى الذاكرة موضوع إحدى الدراسات الغربيـــة المترجمـــة إلـــى العربيـــة

وموضوعها (المرأة والتأليف فى الأدب الإنجليزى)؛ وهى دراسة تدور حول نشاط المرأة الأدبى فى القرن الثامن عشر الميلادى فى إنجلترا. وقد سجلت هذه الدراسات المواقف الكثيرة التى تدل على التحيز ضد المرأة أدبياً فى تلك الحقبة، حتى أدى هذا التمييز إلى إحجام كثير من الأديبات عن نشر أعمالهن الأدبية بأسمائهن الأنثوية، وأصبحن يتخفين فى نشرها وراء أسماء الرجال، حتى تنال الإقبال من القراء؛ لأنه متى ما علم أنها لامرأة، بدأت النزعة الرافضة لهذه الأعمال، وكذلك ملامح التشكيك فى قدراتهن الفنية والأدبية. ومن المواقف المثيرة فى هذه الدراسة موقف الكاتب الإنجليزى (ماثيو جريجورى لويس) الذى برز وهو فى العشرين من عمره عن طريق روايته (الناسك)؛ فعندما علم أن أمه قد كتبت رواية تنوى نشرها ثار ثورة عارمة، وقد صور لها ألمه، مشيراً إلى أن عملها هذا سيؤدى إلى كارثة لأسرتها؛ فمن يتزوج فتاة أمها كاتبة - على حد تعبيره، ويعنى بذلك أخواته. وقد دفع به رفضه هذا إلى التفكير فى الهجرة عن وطنه إن لم تتراجع والدته عن هذا الأمر (المرأة والتأليف، ص ص١٠ - ١١). فهذا الشاب الذى يعيش فى القرن الثامن عشر الميلادى يرفض عمل والدته فى المجال الأدبى، فى الوقت الذى صادفنا فيه رجلاً أعرابياً يعيش فى القرن السادس الميلادى يفسح المجال لابنته لقرض الشعر، وهجاء الأخطل عندما تعرض لها، بقوله رداً على شكواه: هى امرأة مالكة أمرها.

وليس هذا فحسب، فإن المجتمع العربى الإسلامى القديم سمح للمرأة - كما سمح للرجل - بالتكسب بالشعر. وقد تحدثنا فيما مر عن بعض الشاعرات وهن يتقدمن بمديحهن إلى الخلفاء والأمراء، وينلن عليه العطايا

والهبات، شأنهن شأن الشعراء الرجال الذين يتخذون من نظم الشعر وسيلة للكسب. وعندما ننظر إلى وضع المرأة في الغرب ليس في تلك العصور المتقدمة، ولكن في عصور تالية (في القرن الثامن عشر الميلادي) نجد المجتمع يرفض احتراف المرأة مهنة الأدب.

وقد كتب الأديب الكبير (سادثير) عن (شارلوتْ برونتي) وهي إحدى الروائيات الإنجليزيات يحذرها من التفكير في اتخاذ الكتابة الأدبية مهنة لها عندما كتبت إليه تطلب رأيه في بعض قصائدها الشعرية قائلاً: "لا يمكن أن يكون الأدب مهنة للمرأة، ولا يجب أن يكون، فإنها إذا ما التفتت إلى واجباتها الأساسية فلن تجد فراغاً لذلك، حتى وإن كان ذلك للتسلية" (المرأة والتأليف، ص ص ١٠-١٣).

ومع أن المرأة في المجتمع العربي الإسلامي القديم قد أتيح لها فسحة من الحرية في هذه المجالات، وفي غيرها، نجدها في عصرنا الحاضر تتقهقر، بسبب تمازج القيم والمفاهيم وتداخلها في مجتمعنا الحديث، نتيجة ما دخل عليها من عادات وتقاليد ليست من نسيجه وليست من معدنه.

ويتبين لنا أيضاً مما مر أن الإسلام لم يدعُ إلى فصل النساء عن الرجال اجتماعياً، وإنما دعا إلى إشراكهن في الحياة العامة، مع المحافظة على المبادئ التي تنظم حياة الأفراد في المجتمع الإسلامي، سواء أكانوا رجالاً أم نساء. لكن المجتمع العربي قبل الإسلام كان مجتمعا ذكوريا، شأنه شأن غيره من المجتمعات الأخرى، وخاصة في العصور القديمة. ونتيجة لهذا كان هناك بعض المفاهيم والتقاليد والأعراف المعمول بها في علاقة المرأة بالرجل أو بمكانة المرأة في مجتمعها. ولذا فإنه لما جاء الإسلام

بدعوته إلى المساواة بين أفراد المجتمع، اصطدم بتلك القيم والأعراف، التى لا علاقة لها بالإسلام، وتدعو إلى عزلة المرأة اجتماعياً، بحجج وذرائع حاولت - بالاستناد إليها - أن تنسب إلى الإسلام الكثير من الأوهام والتقاليد القديمة وتضفى عليها صفة الشرعية والقدسية، فى محاولة لعزل المرأة عن المجتمع وعن النشاط الاجتماعى باسم التقاليد والأعراف، التى هى بعيدة كل البعد عن مضامين هذه العقيدة السمحاء.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن بعض التساؤلات التـــى تطـــرح نفسها حتى هذه اللحظة حول المرأة، ومنها ما يتعلق بالمرأة والإبداع، بعد أن كشفت عن دور المرأة فى المجتمعات العربية والإسلامية القديمة، وســـجلت عدداً من المواقف التى تمثل مكانة المرأة فى تلك المجتمعات، ونظرة تلـــك المجتمعات إلى دورها.

وقد بينت هذه المواقف أن المرأة لم تكن فى الوضع الأدنى قدراً؛ فقد كانت تخالط الرجال وتشارك فى الحياة العامة، كمشاركتها الرجال فى عقـــد الأحلاف، كما كانت تجير الرجل الغريب إذا لجأ إليها، وكان على القبيلـــة أن تقر هذه الإجارة. وقد أبقى الإسلام على هذه القيم، وأضـــاف إليـــها الكثـــير فأشركها فى الشورى، ثم إنها كانت تشارك فى محافل الرجال فى كثير مـــن المناسبات، كما كانت تفد على الخلفاء، ولم يكن فى هذه الأمور مـــا يريـــب عندهم. وإذا كانت المرأة قد ظفرت بهذه الحرية فى الحياة العامة، فلا بـــد أن تكون قد حظيت بمساحة رحبة من الحرية فى أمورها الخاصة؛ فقد كان لـــها الحرية فى اختيار الزوج وتطليقه. وقد نظم الإسلام لها هـــذا الحـــق إذا لـــم يتحقق لها الاكتفاء النفسى والمادى. وطبيعى أن يكون النبى (ﷺ) هو القـــدوة فى هذا الشأن، كما جاء فى آية التخيير من سورة الأحزاب. وقـــد تبيـــن أن الإسلام سمح للمرأة بالزواج بعد وفاة الزوج أو تطليقه. وقد أوردنا نمـــاذج عدة لنساء تكرر زواجهن حتى بعد أن بلغ أبناؤهن مبلغ الرجال.

تحدثنا كذلك عن سفور المرأة، وكيف أنه لم يكن عاماً بيـــن نســـاء العرب قديماً حتى جاء الإسلام، وكيف أن شريفات نساء المسلمين خـــالطن

الرجال، وكان لبعضهن دور سياسى واجتماعى وفنى، كدور السيدة سكينة بنت الحسين الأدبى، ودور زبيدة زوج الرشيد الاجتماعى والسياسى، ودور علية بنت المهدى الفنى.

وبعدها مررنا بالأعمال والحرف التى اختصت بها المرأة، ومنها ما كان يعتقد أنه من اختصاص الرجال، كالسعى فى الأرض، والعمل بالتجارة. وقد أشرك الإسلام المرأة فى مواقع اتخاذ القرار، مثل ما قام به عمر بن الخطاب (رضى) عندما ولى امرأة أمر سوق مكة، وأخرى أمر سوق المدينة؛ وقد عدها بعض الفقهاء من باب الولاية العامة.

أما عن دور المرأة فى الإبداع الشعرى - وهو محور هذه الدراسة الأساسى - فقد مهدنا لهذا الموضوع بالحديث عن قدرة المرأة على نقد الشعر وتمييز جيده من رديئة. وقد كان هذا النقد يدور فى محافل يحضرها الرجال ومنهم الشعراء، حيث كان الاختلاط بدون ريبة أو انحلال، وإلا لما سمح كبار القوم وساداتهم لنسائهم بهذه الفسحة من الحرية. وقد انتقينا مجالس بعضهن، وما كان يدور من مساجلات نقدية بين النساء والشعراء، كشفت عن قدرات المرأة فى مجال النقد الأدبى على نحو يتناسب مع المضامين النقدية فى تلك العصور.

وقد انتهينا من هذا كله إلى الكشف عن قدرات المرأة فى مجال الإبداع الشعرى فى تلك العصور المتقدمة، وبينا أن المرأة العربية إذا بدت فى العموم مقلة فى نظم الشعر فإنها تندرج ضمن ظاهرة لا تشمل المرأة العربية وحدها دون غيرها من النساء فى الآداب الأخرى، وذلك لكون المرأة منصرفة إلى أدوارها الأخرى بوصفها أما وزوجة. ومع ذلك فإنها متى أتيح

لها الفرص المعينة على إبراز تلك القدرات الفنية تفوقت فى نظم الشعر كتفوق الرجال.

ولم نَسْعَ - عند الكشف عن هذه القدرات - إلى حصر جميع من نظمن الشعر من النساء، ولا رصد جميع ما قالته الشاعرات موضوع الدراسة، وإنما هى وقفات بيّنا فيها تفوق المرأة وجرأتها فى قول الشعر فى فنونه المختلفة، من مدح وغزل وهجاء وحكمة وحنين إلى الأوطان، عبرت خلاله عن تجربتها فى الحياة وعن نزعاتها وعواطفها. ووقفنا عند آراء بعض النقاد، خاصة المحدثين منهم الذين شككوا فى قدرات المرأة فى مجال الإبداع الشعرى، انطلاقاً من نزعة ذكورية فى التفكير، حيث جعلوا جُلَّ إبداعها محصوراً فى فن الرثاء الذى يجدونه "وثيق الصلة بنفس المرأة وسرعة انفعالها"، ومتناسبا مع غريزتها وشعورها بالضعف، فإذا هى تجاوزت حدود النظم فى هذا الفن كان ذلك من باب النادر.

وقد تسرب شىء من هذه النزعة الذكورية إلى ناقدة حديثة! حين اعتقدت أن الشاعرة العباسية أصدق تعبيراً عن حياتها، وأكثر جرأة فى تناول الموضوعات من النساء فى العصور السابقة، التى تميزت بالقدرة على البكاء والرثاء. وقد رددنا على رأى هذه الناقدة بأن الجرأة فى التعبير لدى شاعرات العصر العباسى كانت فى إطار شعر الجوارى لا الحرائر، وفى غزلهن الفاضح حين برزن على سطح الحياة الأدبية؛ فهن لسن كالحرائر، لاختلاف نشأتهن التى أمضينها فى الحانات ودور القيان. وفى الرد على ذلك الرأى أوردنا ما قالته إحداهن فى العصر الجاهلى وهى تفتخر بأمها الأعجمية فى جرأة فى التعبير جاوزت حدود ما يسمح به المجتمع القبلى الذى تحكمه

العصبية القبلية والتنابز بالألقاب، كما أوردنا شعرا لأخرى من العصر الإسلامى تعلن فيه عن رغبتها فى شرب الخمرة لعلها تنسيها الرجل الذى أحبته، فلما علمت بأن عمر (رضى) اطلع على أمرها أرسلت إليه شعرا تعلن فيه رفضها الخمر وتحريمها إياها. ثم وقفنا عند شاعرة من العصر الأموى هجت الأخطل بشعرها، فعندما شكاها الأخطل لوالدها أجابه بأنها امرأة مالكة أمرها، وبيّنا أن نظرة القدامى إلى قدرات المرأة فى الشعر تعلو كثيراً على نظرة المتأخرين، وسجلنا موقف النبى (ﷺ) وموقف بعض الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين وتصريحاتهم التى تعلو بشعر بعض النساء إلى مصاف شعر الرجال، إلى ما جاء على لسان الشعراء والنقاد فى تلك العصور.

ولم نغفل موقف النقاد القدامى والمحدثين من شعر الخنساء فى الرثاء، الذى عدّوه الفن الرحب الذى عبرت من خلاله عن ذاتها، وكيف شككوا فى قدراتها على النظم فى الفنون الأخرى. وقد بينا القيم الفنية فى شعر الخنساء، وكيف أن الشعر كان أداتها للتعبير عن جوانب عدة فى حياة عصرها ومجتمعها، ولولا غمامة الحزن التى غلفت حياتها لنظمت فى فنون الشعر الأخرى. على أنه لا يضير الشاعر - رجلا كان أو امرأة - أن يقف شعره على فن واحد. ولم تكن الخنساء وحدها فى ذلك، بل كان هناك من الشعراء من وقفوا شعرهم على فن واحد، وكانوا - مع ذلك - شعراء مبرزين، تحفظهم الذاكرة الأدبية حتى عصرنا الحاضر، كعروة بن الورد، الذى أوقف ديوانه على قضية الصعلكة، وعمر بن أبى ربيعة، والعباس بن الأحنف، وربيعة الرقى، الذين استأثر فن الغزل بشعرهم.

من هنا عرضنا لأشعار النساء فى المديح والهجاء والغزل والحكمة والحنين للأوطان، وبيّنا كيف أن المجتمع العربى والإسلامى القديم سمح للمرأة بالتكسب بشعر المديح، ولم ينكر ذلك على النساء، فكن يتقدمن بمديحهن إلى الخلفاء والولاة والأمراء، وينلن عليه العطايا والهبات، شأنهن شأن الرجال، حتى نال بعضهن مكانة أدبية واجتماعية متميزة فى بيئاتهن.

كذلك استخدمت المرأة شعرها فى الهجاء عندما كانت مضطرة إلى ذلك، على نحو ما رأينا لدى الخنساء وليلى الأخيلية وغيرهما.

وقد عبرت المرأة عن عاطفة الحب تجاه الرجل دون مواربة، حتى وإن لم يكن هذا الرجل زوجها. وقد بيّنا كيف أن الحياة اتسعت فى المجتمعات الإسلامية فأتاحت للمرأة حرية التعبير عن هذه المشاعر والبوح بها وهى تجالس صفوة الرجال، على نحو ما سجلنا من مواقف وأشعار لليلى الأخيلية فى حضرة الخليفة معاوية بن أبى سفيان .

هذا بالإضافة إلى ما أوردناه من أشعار للنساء فى الحكمة، تصل إلى مستوى شعر الفحول فى جزالة القول وقوة التعبير على نحو يتناسب مع هذا الفن.

وقد عمدنا إلى تسجيل شعر المرأة فى الغربة والحنين إلى الأوطان، لنكشف عن أمر مهم هو أن هذا الشعر لم يكن بالضرورة غزلاً فى الرجل، ولكنه غزل وحنين حقيقى للوطن.

وكانت لنا وقفة عند الشعر السياسى وحضور المرأة فيه، وخاصة مشاركاتها فى فرقتى الشيعة والخوارج. وبعدها انتقلنا إلى شعر المرأة فى العصر العباسى وفى الأندلس، وبيّنا كيف أن المرأة الحرة غابت عن ميدان

الحياة العامة، وضعفت مشاركتها الفعالة فى الحياة الأدبية عدا القليل منهن.

وتأسيساً على ما تقدم فى هذه الدراسة وما كشفت عنه من حضـــور المرأة فى الحياة العامة، وقدراتها فى مجال الإبداع الشعرى، أمكننا الكشـــف عن بعض مظاهر الحياة فى المجتمعات العربية فى تلك العصور المتقدمـــة، وكيف أن المرأة لم تكن منطوية على نفسها أو منغلقة على ذاتـــها، ولكنـــها كانت صاحبة تجربة، وموقف وجدانى حر. كذلك ظهر لنا - عند المقارنـــة بين إبداعات المرأة فى تلك العصور - فضـــل المتقدمـــات مـــن جاهليـــات وإسلاميات فى جودة أشعارهن وقوة تعبيرهن وجرأته، على المتأخرات فـــى العصر العباسى وفى الأندلس، حيث تركز شعر غالبيتهن فى فـــن الغـــزل، فلانت لغتهن وقربت من لغة الحياة اليومية.

المصادر والمراجع

١- الإجابة على ما استدركته عائشة على الصحابة، الزركلى، ١٩٨٠.

٢- إحياء العلوم، الإمام الغزالى، دار المعرفة، بيروت.

٣- الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينورى، مطبعة المثنى، بغداد.

٤- أخبار النساء، ابن القيم الجوزية، مطبعة التقدم، مصر، ١٣١٩هـ .

٥- الأحكام السلطانية، الماوردى.

٦- الاعلام، الزركلى، طبعة دار الملايين، بيروت.

٧- أعلام النساء، عمركحالة، مكتبة كوست توماس، ج٢١، ١٩٥٤م.

٨- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، القرطبى، على هامش الإصابة، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٨هـ .

٩- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، ابن الأثير، المطبعة الإسلامية، ١٣٣٦هـ .

١٠- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، أبو بكر الصولى، نشر هيورث دون، ١٩٣٦.

١١- أشعار النساء، المرزبانى، تحقيق سامى العانى وهلال ناجى، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٦ .

١٢- الإصابة فى تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلانى، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٨هـ .

١٣- الأصول الفنية للشعر الجاهلى، سعد إسماعيل شلبى، مكتبة غريب، القاهرة.

١٤- الأغانى، أبو الفرج الأصفهانى، دار الثقافة، بيروت.

١٥- الإمام مصطفى صادق الرافعى، مصطفى نعمان البدرى، مطبعة دار البصرى، بغداد، ١٩٦٨.

١٦- البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م .

١٧- بلاغة الكتاب فى العصر العباسى، محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٦٥ .

١٨- تاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٥ .
١٩- تاريخ الإسلام السياسى، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١٠، ١٩٨٣ .
٢٠- تاريخ التشريع الإسلامى، محمد الخضرى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٧، ١٩٦٥ .
٢١- تاريخ الخلفاء، السيوطى، إدارة الطباعة الخيرية، ١٣٥١هـ .
٢٢- تاريخ الطبرى ، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ .
٢٣- تفسير الطبرى، مكتبة البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦٨ .
٢٤- ثمرات الأوراق، الحموى، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الخانجى، القاهرة، ط١ .
٢٥- جمهرة خطب العرب، أحمد زكى صفوت، ١٩٦٢ .
٢٦- جمهرة رسائل العرب، أحمد زكى صفوت، ١٩٧٣ .
٢٧- الجوارى والشعر فى العصر العباسى، سهام الفريح، الربيعان، الكويت، ط١ .
٢٨- خزانة الأدب: داود سليمان فى العهد القديم والقرآن الكريم، أحمد عيسى الأحمد، رسالة دكتوراه، ١٩٩٠ .
٢٩- الحضارة الإسلامية، آدم متز، ترجمة: عبد الهادى أبو ريدة .
٣٠- ديوان أبى العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ .
٣١- ديوان الحماسة، أبو تمام، دار الكتب، القاهرة .
٣٢- رسائل الجاحظ، مطبعة التقدم، ط١، ١٣٢٤هـ .
٣٣- زهر الآداب، الحصرى القيروانى، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢ .
٣٤- الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام، عبد السلام الترمنينى، من عالم المعرفة، العدد٨٠، ١٩٨٤، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت .
٣٥- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، البابى الحلبى، ط١، ١٩٥٥ .
٣٦- شاعرات العرب، بشير يموت، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٣٤ .
٣٧- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٢ .

٣٨- الطبقات الكبرى، الواقدى، تحقيق: بروكلمان، لندن، ١٣٢٩هـ .
٣٩- عائشة أم المؤمنين، زاهية قدورة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٧٦ .
٤٠- القرآن الكريم .
٤١- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسى، شرح: أحمد أمين، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٨٦ .
٤٢- الكامل فى التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦ .
٤٣- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .
٤٤- مجمع الأمثال، الميدانى، دار مكتبة الحيانى، بيروت، ١٩٦١ .
٤٥- المرأة والتأليف: دراسات فى الأدب الإنجليزى، ترجمة: سهيلة أسعد نيازى، منشورات دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٣ .
٤٦- المرأة فى الشعر الجاهلى، أحمد الحوفى، (د . ت) .
٤٧- مروج الذهب، المسعودى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٨ .
٤٨- المحاسن والأضداد، الجاحظ، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت،١٩٦٩.
٤٩- المستظرف من كل فن مستظرف، الأبشيهى، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٦٨هـ .
٥٠- مصر فى العصور الوسطى، عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠ .
٥١- معجم الأدباء، ياقوت الحموى، تحقيق: أحمد رفاعى، دار المأمون، ١٩٣٦ .
٥٢- نزهة الجلساء فى أشعار النساء، السيوطى، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت .
٥٣- الوصايا فى الأدب العربى القديم، سهام الفريح، الربيعان، الكويت، ١٩٩٧ .

المجلات:

- عالم الفكر، المجلد الثامن عشر، العددان الأول والثانى١٩٨٧، الكويت .
- مجلة العربى، العدد ٤٩٦، مارس ٢٠٠٠، الكويت .
- نزوى، العدد السابع عشر، يناير١٩٩٩، عمان .

جامعة الدول العربية
معهد البحوث والدراسات العربية

البيئة الاستثمارية فى الاقتصاد اليمنى

فضل على مثنى*

مقدمة

أكدت الأدبيات المتخصصة على تعريف البيئة المواتية للاستثمار بأنها تلك البيئة التى تتسم – ضمن أمور أخرى – بكفاءة النظم الإدارية التى تتعامل مع الاستثمار الوافد ووضوح النظم القانونية التى تعالج قضايا المستثمر واستثماراته فى الدول المضيفة للاستثمار وثبات تلك النظم وتوازنها.

وقد أجمعت آراء المستثمرين على هذه الحقيقة مؤكدين أن البيئة القانونية والتشريعية المنظمة للاستثمار تلعب دوراً محورياً فى تأسيس القدرة المؤسسة المؤثرة فى استقطاب الاستثمار وتوجهاتها. وتعد هذه النظم القانونية والتشريعية أحد أركان القدرة المؤسسية التى تشمل أيضا خلفية العنصر البشرى ودرجة التأهيل العلمى والتقنى وكفاءة النظم الإدارية وشفافيتها.

وتبرز العلاقة بين القدرة المؤسسية والقدرة الاستثمارية على ضوء الأهمية الكبيرة التى يوليها المستثمرون لبيئة السياسات والقدرة المؤسسية فى مجال الاقتصاد، حيث يؤدى ضعفها أو انخفاض مستواها إلى انخفاض العوائد الحدية على الاستثمار وإلى سوء تخصيص الموارد وتفشى الفساد الإدارى وسيادة بيئة التقدير الشخصى والغموض البيروقراطى الذى يلف سلطات المسئولين، وهو ما يعنى المزيد من عدم كفاءة النظام الحكومى

---

* باحث بمعهد البحوث والدراسات العربية.